القسم الرابع

المحظورات

٥٩- الحلال- الحرام

القرآن الكريم

قال الله تعالى:

١-يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا

البقرة ١٦٨

٢-حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ

المائدة ٣

٣-يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤) الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ

المائدة ٤، ٥

٤-قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (٥٩)

يونس ٥٩

الأحاديث:

١- عن سعد بن أبو وقَّاص رضى الله عنه أنه قال للرسول صلى الله عليه وسلم يا رسول الله ادعُ الله أن يجعلني مستجاب الدعوة، فقال له: يا سعد أطبْ طعامك تكن مستجاب الدعوة (رواه الترمذي في كتاب المنافق).

٢- عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سُئل عن البحر ومائه، فقال: هو الطهَّور ماؤه الحِلُّ مَيْتته (رواه مالك في الموطأ والترمذي والنسائي).

٣- عن عدى بن حاتم أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أني أرسل الكلاب المعلَّمة فيمسكن علىّ وأذكر اسم الله عليها فهل يحل ما تصيده، فقال الرسول: إذا أرسلت كلبك المعلَّم وذكرت اسم الله عليه فكُل ما أمسك عليك (رواه البخاري ومسلم في كتاب الصيد والدبائح).

٤- بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ثلاثة من أصحابه تنافسوا في الزهد فقال أحدهم أما أنا فأني أصلى الليل أبدا، وقال الثاني أما أنا فأصوم الدهر ولا أفطر، وقال الثالث أما أنا فاعتزل النساء ولا أتزوج أبدا. فبعث إليهم الرسول، وقال: ما بال أقوام يقولون كذا وكذا ألا إني أصلى وأنام، وأصوم وأفطر وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس منى (رواه البخاري ومسلم).

والآية الأولى تؤكد أن الله أحلَّ للناس كل ما في الأرض من الطيبات، والطيب هو ما تستطيبه النفوس من الأطعمة، لما تجد فيه من اللذة، ولأنها لا تجد فيه أي ضرر، وكأن قاعدة الحلال في الطعام الطيب أنه لا يصيب طاعمه بأي ضرر، بخلاف الحرام فإنه يكون عادة ضارا بالإنسان. والحلال هو الأصل في الأطعمة وكان بعض فقهاء القرن الأول الهجري يتحرج في الحكم على الشيء أو الطعام بأنه حلال أو حرام، كما روى عن النخعي المتوفى بأخر من هذا القرن إذ كان يكتفي بقوله: هذا كان يستحسنه الصحابة، وذاك كانوا يتكرهونه. وكان عبد الله بن شبرمة في النصف الأول من القرن الثاني لا يحكم على شيء أو طعام حكما قاطعا إلا أنه إذا كان حلالا يقول إنه حلال وليس بحرام، وكان لا يحكم على شيء أو طعام بأنه حرام إلا إذا ثبت ذلك عنه في

الأحاديث الصحيحة. ومن المأثور عن سفيان الثوري المتوفى سنة ١٦١ للهجرة أنه كان يقول عن الحلال والحرام: «إن العلم هو أن تحلِّل للناس الأمر أخذا من الأصول وييسر عليهم، لا الذي يحرم. واستقر بين الفقهاء قانون عام هو أن الأصل في الأشياء والأطعمة الإباحة وأنه إذا تردد الفقيه بين الإباحة والتحريم في شيء أو طعام غُلِّبت الإباحة مادام لا يوجد فيه نص بالتحريم. وإذن يكون الطعام طيبا حلالا، ويقول الرسول صلَّى الله عليه وسلم لسعد بن أبي وقاص حين سأله في الحديث الأول أن يدعو الله له أن يكون مستجاب الدعوة، فقال له: يا سعد أطِبْ تكن مستجاب الدعوة.

والآية الثانية تذكر المحرمات من الأطعمة، وهى الميتة من الحيوانات حَتف أنفها دون ذَبح أو صيد لما فيها من الضرر الشديد والدم المحتقن، ويستثنى منها السمك فإنه طعام حلال سواء مات بإعمال سكين فيه أو غيرها أو مات حتف أنفه لقول الله تعالى: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ ﴾ويقول الرسول صلَّى الله عليه وسلم حين سُئل عن البحر ومائه إنه الطهور ماؤه الحِلّ مَيْتته. ﴿وَالدَّمَ ﴾المسفوح أي السائل، وفى الحديث: أُحلَّت لنا ميتتان ودمان، فأما الميتتان فالسمك والجراد وأما الدمان فالكبد والطحال. ﴿وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ ﴾ إنسيُّه ووحشيُّه. ﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ أي ما ذُبح وذُكر عليه اسمُ غير الله من آلهة الوثنيين، وفى سورة الأنعام: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ واختلف الفقهاء فقال بعضهم إنه نهى واجب فلا تحل الذبيحة إذا لم يذكر اسم الله عليها، وقال بعضهم إن التسمية لا تشترط بل هي مستحبة فقط، فإن تركت لا يضر لما روى من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ذبيحة المسلم حلال ذكر الله، أو لم تذكر. ﴿ وَالْمُنْخَنِقَةُ ﴾التي تموت بالخنق. ﴿ وَالْمَوْقُوذَةُ ﴾التي تضرب بشيء ثقيل حتى تموت ﴿ وَالْمُتَرَدِّيَةُ ﴾ التي تقع من شاهق أو مكان عال. ﴿ وَالنَّطِيحَةُ ﴾ التي ماتت بنطح غيرها لها. ﴿ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ ﴾ أي الحيوان المفترس ﴿ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ ﴾ أي إلا ما لحقتموه من هذه الأنواع وذبحتموه. ﴿ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ ﴾ وهى حجارة حول الكعبة كانوا يذبحون عندها وينضحون عليها دماء تلك الذبائح في جاهليتهم ﴿ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ﴾ جمع زلم، وكانت ثلاثة قداح مكتوب على أحدها: افعل، وعلى الثاني لا تفعل، والثالث غفل ليس عليه شئ، فإن طلع الأول فعلوا الأمر الذي جاءوا

لاستقسامه أو طلبه من القداح، وإن طلع الثالث أعادوا الاستقسام. والله يقول (ذَلِكُمْ فِسْقٌ). وقد انتهى المسلمون عن كل هذه المحرَّمات.

وتذكر الآية الثالثة أن الصحابة كانوا يسألون الرسول عما أُحِلَّ لهم من الطعام، وأجابت الآية: ﴿ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ ﴾من الأطعمة التي طابت واستلذَّها الطاعم، وكأن القرآن جعل وصف الطيب من الأطعمة لما هو حلال بخلاف المستقذر الذي تعافه النفس فهو حرام. والشعوب تختلف فيما تستطيبه من الأطعمة، ففي أخبار العرب أنهم كانوا يأكلون الضب واليربوع، ومن الشعوب من يأكلون الضفادع والسلاحف والقرود، ومن أهالي الثغور من يأكلون سلاحف البحر ودوابه. والشريعة الإسلامية تتقبل ما تستطيبه الشعوب من الأطعمة، وترفض من الطعوم ما يضر بالجسد أو بالعقل من المحرمات مثل الخمور والمخدرات. وتقبل الآية صيد الجوارح وهى الكلاب والفهود والصقور وأشباهها التي مرنوها على صيد الحيوانات وعلموها، وفى الحديث الثالث عن عدى بن حاتم قال: قلت يا رسول الله إني أرسل الكلاب المعلمة وأذكر اسم الله عليها فقال إذا أرسلت كلبك المعلَّم وذكرت اسم الله عليه فكُلْ ما أمسك عليك. ومثل هذه الأطعمة في الحل طعام أهل الكتاب مما يجعل ذبائح المسيحيين سائغة للمسلمين.

والآية الرابعة تنهى المشركين عن الكذب على الله فيجعلون الحلال حراما كما في سورة المائدة: ﴿ مَا جَعَلَ اللهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ﴾في الأنعام إذ كانوا يحرمون ذبحها جميعا، والبحيرة: الناقة إذا أنتجت خمسة أبطن وقيل بل عشرة، والسائبة: ما جُعلت نذرا لشفاء من مرض وقيل بل تلد عشر إناث متتابعة، والوصيلة: قيل الناقة تلد أنثى بعد أنثى وقيل الشاه تلد سبع إناث، والحام فحل الإبل الذي أنتج عشرة أبطن من صلبه. وتذكر سورة الأنعام أنهم حرموا ركوبها جميعا، وأنهم جعلوا لله مما خلق من الزروع والأنعام نصيبا ولأوثانهم وسدنتها نصيبا آخر، وأنهم نذروا للسدنة والنعام زروعا وأنعاما خاصة بهم، وكل ذلك وما يماثله مما قالوا فيه هذا حلال وهذا حرام إنما هو افتراء على الخالق الأعلى. وكان بعض الصحابة- كما مرَّ بنا- صَمَّموا على أن يتزهدوا في ملاذ الحياة ويعيشوا للعبادة والنسك، فصمم أحدهم على أن يقضى الليل مصليا، وصمم الثاني على أن يقضى النهار صائما وصمم الثالث على أن لا يتزوج، فنهاهم رسول

الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك نهيا باتا قائلا: إني أصلى وأنام، وأصوم وأفطر وأتزوج، فمن رغب عن سنتي فليس منى.

٦٠- الزِّنا

القرآن الكريم

قال الله تعالى:

١-وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلًا (١٥) وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا

النساء ١٥، ١٦

٢-وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (٣٢)

الإسراء ٣٢

٣-الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢)

النور ٢

٤-الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (٣)

النور ٣

الأحاديث:

١- عن أبى أمامة أنَّ شابًّا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله ائذَن لي بالزِّنا، فأقبل الصحابة عليه يزجرونه قائلين: مهْ مَهْ أي كُفَّ كُفَّ فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: أدنوه منى، فدنا منه قريبا فقال له: اجلس، فجلس، فقال له أتحبه لأمك؟ قال لا والله، جعلنى الله فداك، قال الرسول؛ ولا الناس يحبونه لأمهاتهم، وقال الرسول: أتحبه لابنتك؟ قال لا والله يا رسول الله جعلني الله فداك، قال الرسول: ولا الناس يحبونه لبناتهم، قال الرسول: أفتحبه لأختك؟ قال لا والله جعلني الله فداك، قال الرسول: ولا

الناس يحبونه لأخواتهم، قال الرسول أفتحبه لعمتك، قال لا والله جعلني الله فداك، قال الرسول: ولا الناس يحبونه لعماتهم، قال الرسول أفتحبه لخالتك؟ قال لا والله جعلني الله فداك، قال الرسول ولا الناس يحبونه لخالاتهم. فوضع الرسول يده عليه وقال: اللهم اغفرْ ذنبه وطهر قلبه وأحْصِنْ فرجه (رواه ابن حنبل في مسنده).

٢- عن الهيثم بن مالك الطائي قال الرسول صلى الله عليه وسلم: ما من ذنب بعد الشرك أعظم عند الله من نُطفة وضعها رجل في رحمٍ لا يحل له (رواه ابن كثير في تفسير الآية الثانية والسيوطي في الجامع الصغير).

٣- عن عبادة بن الصامت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: خُذوا عنى خُذوا عنى: قد جعل الله لهن سبيلا (يشير إلى آية سورة النساء المذكورة) البِكر بالبِكر جلد مائة وتغريب عام، والثَّيِّب جلد مائة والرَّجم (رواه مسلم في كتاب الحدود).

٤- عن بريدة أن ماعز بن مالك الأسلميّ أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله إني قد ظلمت نفسي وزنيت وإني أريد أن تطهِّرني فردَّه. فلما كان من الغد أتاه فقال: يا رسول الله إني قد زنيت، فرَّده الثانية، فأرسل رسول الله إلى قومه فقال أتعلمون بعقله بأسا أتنكرون منه شيئا؟. فقالوا ما نعلمه إلا كامل العقل من صالحينا فيما نرى. فأتاه الثالثة فأرسل إليهم فسأل عنه، فأخبروه أنه لا بأس به ولا بعقله. فلما كان الرابعة وكان متزوجا حفر له حفرة ثم أمر به فرُجم (رواه مسلم في كتاب الحدود).

والفاحشة في آية سورة النساء الأولى الزنا، ويأتيه أي يفعله وهذه الآية هي الأصل في اشتراط أربعة من الشهادة على الزنا. وحكم الزانية في الآية الحبس في البيت حتى الوفاة، وحكم الـزاني في الآية التالية بكرا أو متزوجا الإيذاء باللسان شتما وباليد ضربا، وهذا الحكم في الزنا بحبس المرأة في البيت حتى الموت وإيذاء الرجل لم يلبث أن نُسخ بحكم آية سورة النور التالية.

ويحرم الله تحريما باتًّا في سورة الإسراء الزنا، وهو إفضاء الرجـل إلى امـرأة ليـست زوجـة لـه، ويقول ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا ﴾ أي لا تدنو منه بأي ملابسه وهو تشديد في النهى عنه، ويقول في الآيـة

﴿ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً ﴾ أي عملا قبيحا أشد القبح، ويذمُّه قائلا: ﴿ وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ أي وبئس الزنا طريقا ومسلكا.

والزنا يؤدى إلى خلل عظيم في المجتمع إذ يعتدي الزاني على أسرة وينتهك عرضها في فتاة أو امرأة وقد تفتك به الأسرة. وهو يؤدى إلى إفساد المرأة على زوجها وقد يطلقها كما يؤدى إلى إفساد الفتاة على أهلها، وقد تحمل المرأة المتزوجة من الزاني، فتضيع صحَّة النسب وقد تحمل الفتاة، وتلد ولدا غير شرعي، وترمى به متبرئة منه، وأيضا فكل من تُعْرف بأنها زانية لا يقبل أحد على الزواج منها، وكل تلك صور من فساد شديد. ولذلك كان المجتمع يَعدُّهُ هَوْلاً ما يماثله هول، وهو هول لا يشفى صاحبه منه إلا أن يقتل الزاني جزاء عمله الفاحش المشين الذي يعد من أكبر الكبائر والجرائم. ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الثاني: ما من ذنب بعد الشرك أعظم عند الله من نطفة وضعها رجل في رحم لا يحل له.

وآية سورة النور التالية في الترتيب تنسخ حكم الزنا في آيتي سورة النساء المذكورتين المتضمنتين لحبس المرأة في البيت طول حياتها حتى الموت، والإيذاء الموجع للرجل، فقد نُسخ هذا الحكم سريعا، وحلَّ مكانه حكم هذه الآية، وهو جلد الزاني مائة جلدة وخصصته السنَّة! بجلد الأعزب غير المتزوج، أما المتزوج ويسمى مُحْصَنا فجعلت السنة حَدَّهُ الرجم بالحجارة حتى الموت. وفيه يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: البِكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام والثَّيب جلد مائة والرجم. والحديث يضيف إلى غير المتزوج تغريب عام أو نفى عام عن بلده لدعارته، بينما يجعل الرجم حدَّ المتزوج. واتفق الأئمة على أن الزانية لا تغرَّب لأن في ذلك مضيعة لها، وأنكر أبو حنيفة التغريب على الرجال أيضا، لأنه نقل ضار من مكان إلى آخر واحتج بأنه ليس موجودا مع الحد في الآية. واتفق الأئمة على رجم المحصن أو المتزوج كما في الحديث الرابع حديث ماعز بن مالك، ولم يعرف عنهم الجمع بين الجلد والرجم، ويشهد بذلك حديث ماعِز. والخوارج أجمعهم يرون أن حد الزاني متزوجا وغير متزوج هو مائة جلدة، ويقولون إن الرجم ليس في كتاب الله فلا رجم. ويقول الله في الآية الثالثة: إن الحد ينبغي أن يقام إذ شُرع لكم استصلاحًا فلا تأخذكم بهما ﴿ رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾ أي في حكمه ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾، والعبارة تهييج لإقامة الحد،

ولإلهاب الغضب، ويأمر الله أن يحضر عذابهما ﴿ طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ تشهيرا لهما وموعظة بعذابهما وازدجارا.

والآية الرابعة تنهى عن زواج الزانية كما تنهى عن زواج المشركة فهما سواء لا يتزوج منهما مسلم، إنما يتزوج منهما الزاني والمشرك ﴿ وَحُرِّمَ ذَلِكَ ﴾أي الزواج من الزانية والمشركة ﴿ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾.

٦١- الرِّبا

القرآن الكريم

قال الله تعالى:

١-الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا

البقرة ٢٧٥

٢-يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ

البقرة ٢٧٦

٣-يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً

آل عمران ١٣٠

٤-وَمَا آَتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللهِ

الروم ٣٩

الأحاديث:

١- حديث مأخوذ من خطبة حجة الوداع وفيها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألا إن ربا الجاهلية موضوع، وإن أول ربا أبدأ به ربا عمى عباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كله.

٢- عن أبى هريرة رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اجتنبوا السبع الموبقات أي المهلكات، وعدَّ من بينهن أكل الربا (رواه مسلم في كتاب الإيمان).

٣- عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن آكلَ الربا وموكله (رواه مسلم والترمذي وزاد: وشاهديه وكاتبه).

٤- عن الحسن بن على رضى الله عنهما قال: حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم: دَع ما يَريبُك إلى ما لا يريبك (رواه الترمذي).

والآية الأولى تتحدث عن أكلة الربا أي المنتفعين به، والربا: كل قرض يؤخذ به أكثر منه، وأصل معناه اللغوي الزيادة وفى الشرع الزيادة في القرض، كأن يقترض المقترض عشرة دنانير بشرط أن يردها بعد مدة ثلاثة عشر دينارًا، وهو محرم شرعا، لأنه يقتضي أخذ مال المقترض بغير عوض يعطيه له صاحب المال، ولأنه يفضي إلى انقطاع المعروف بين أفراد الأمة الذي عملت الشريعة على قيامه بحيث يكون المسلمون إخوة متعاطفون. وشرعت لذلك مدَّ المحتاجين بأموال الأغنياء عن طريق ما يقدمونه من الزكاة والصدقة لا عن طريق الربا وابتزاز الأغنياء في الأمة لأموال المحتاجين وأخذها دون أي مقابل. وعلة ثانية هي أن صاحب المال إذا تعود الكسب عن طريق الربا لا يحاول أن يوظف ماله في عمل تجارى أو صناعي، وبذلك يعطل انتفاع الأمة وأفرادها بماله عن طريق استثماره في الأعمال المختلفة. وعلة ثالثة هي أن الغالب في صاحب المال أن يكون غنيا وفى المقترض أن يكون فقيرا محتاجا، فلو أصبح الربا مباحا لاستغلَّ ذلك أصحاب المال وأصبحوا مسيطرين على شطر من الأمة وزادوه فقرا على فقر وضعفا على ضعف بما يسلبون من أموال. ويقول الله إن أكلة الربا لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلا قياما مماثلا لقيام من يتخبطه الشيطان أي يصرعه (مِنَ الْمَسِّ) أي الجنون أي كقيام المجنون المصاب بالفزع، وذلك مقدمة العذاب الذي سينزل بهم يوم القيامة لأنهم قالوا (إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا) كأنهم يقولون إن البيع في التجارات فيه الربح الزائد على ثمن السلعة، فلماذا الزيادة في عروض التجارة حلال، وهى حرام في الربا، وفاتهم أن الزيادة في التجارة إنما هي لجلب السلعة وعرضها على المشترين فلها مقابل. بينما في الربا لا مقابل لها ﴿ وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾أي أحلَّ الله الأرباح في التجارة بالبيع والشراء وحرم الربا الذي هو زيادة في المال لتأخير أجله في الرد. ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم في خطبة حجة الوداع في الحديث الأول: ألا وإن ربا الجاهلية موضوع أي ساقط، وإن أول ربا أبدأ بإسقاطه ربا عمى عباس بن عبد المطلب، فإنه ساقط كله.

ويبين الله- جَلَّ شأنه- في الآية الثانية عاقبة الربا في الدنيا بعد أن بَّين عاقبته في الآخرة، والمحق هو المحو، ويمحق الله الربا أي إما أن يسحقه جميعا، وإما أن يذهب من المال بركته، فلا ينتفع به صاحبه النفع المأمول، إذ هو من السبع الموبقات المهلكات كما يقول الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الثاني، وقد لعن آكله وموكله في الحديث الثالث. وقارن الله- في الآية الثانية- بينه وبين الصدقة التي يسعف بها الغنى المحتاج لها من أبناء الشعب، فقال إنه يُربى الصدقات أي أنه يزيد في ثوابها ويضاعفها للمتصدِّق بها، وفى حديث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من تصدَّق بصدقة من كسب طيب- ولا يقبل الله إلا الطيب- فإن الله يتقبلها بيمينه، ثم يُرْبيها لصاحبها كما يرى أحدكم فُلُوَّه أي مُهْره.

وينهى الله المؤمنين في الآية الثالثة أن يتعاملوا بالربا كما كان آباؤهم يتعاملون به في الجاهلية، إذ كان صاحب المال حين يحل أجل ماله يقول لمستقرضه منه: إما أن تقضى ما عليك، وإما أن تُربى، فإذا لم يقضه زاده في الربا، وهكذا كل عام، فكان يتضاعف الربا، ويتضاعف القرض. وليس الغرض من النهى في الآية عن الربا المضاعف بحيث يظن ظان أنه إذا لم يكن مضاعفا سقطت عنه الحرمة فإنما ذكر ذلك للتشنيع على آكل الربا، أما النهى فينصب على الربا مطلقا بدليل آيتي سورة البقرة المارتين.

واختلف المفسرون في الآية الرابعة هل كلمة الربا فيها تعنى معناها الشرعي المار في الآيات السابقة وأنها تنهى أغنياء المؤمنين عن مواساتهم لفقرائهم بإقراضهم أموالا يكتسبون بها، وهو معنى قوله تعالى في الآية إنه ربا يربو أي يزيد في أموال الناس الأغنياء، ويقول إنه لا يربو عند الله ولا يتقبله. وربما نزلت الآية بهذا التفسير قبل تحريم الربا تحريما قاطعا في سورتي البقرة وآل عمران. وذهبت كثرة المفسرين إلى أن كلمة الربا في الآية يراد بها معناها اللغوي وأن المراد بها الزيادة في أموال الغير عن طريق ما يعطوهم من هبات، وأن الله يقول إن نفع ذلك يعود إليهم دون ثواب عليه من الله.

وكان التحريم القاطع للربا في صورة البقرة وتوعد صاحبه بالعذاب في الدنيا والآخرة سببا في أن يرى الفقهاء أن كل ما يظن أنَّ به شائبة ربا يُعد التعامل به حراما، ومما قالوه أن كل قرض يجر

أي منفعة يعد ربا، وكان المسلمون يتحرون أن يبعدوا عن كل ما فيه شبهة ربا عملا بالحديث الرابع: دع ما يَرِيبُك إلى ما لا يريبك. وجَدَّت في هذا العصر مسألة استثمار الأموال في البنوك وهل تَعدَّ ربا أو لا تعد، وطال فيها النقاش وكثر الجدل، والصحيح أنها ليست من الربا المحرم، لأن المحتاج فيها يحفظ أمواله ويستثمرها ويعود عليه منها فائدة مالية.

٦٢- الخمر- الميسر

القرآن الكريم

قال الله تعالى:

١-۞ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا

البقرة: ٢١٩

٢-يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ

النساء: ٤٣

٣-يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠)

المائدة: ٩٠

٤-إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (٩١)

المائدة: ٩١

الأحاديث:

١- عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله حرَّم الخمر والميسر والكوبة والغبيراء وكل مسكر حرام (رواه ابن حنبل في مسنده).

٢- عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لُعنت الخمر وشاربها وساقيها وبائعها ومبتاعها وحاملها والمحمولة إليه وعاصرها ومعتصرها وآكل ثمنها (رواه ابن حنبل في مسنده).

٣- عن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا يشرب (أحد) الخمر حين يشربها وهو مؤمن (رواه مسلم أثناء حديث في كتاب الإيمان).

٤- عن أبي سعيد الخدري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا يدخل الجنة مدمن خمر (رواه ابن حنبل في مسنده والنسائي).

والآية الأولى تصف الخمر والميسر أي القمار بأن فيهما إثما كبيرا ومنافع للناس، والخمر: كل شراب مسكر سواء كان عصير عنب أو ماء نُبذ فيه زبيب أو تمر أو شعير أو غير ذلك مما يسمى بالنبيذ. وقيل إن السائلين عن حكم الخمر في الآية هم عمر بن الخطاب ومعاذ بن جبل ونفر من الأنصار جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: فقالوا يا رسول الله أفْتِنا في الخمر فإنها مذهبة للعقل متلفة للمال، فنزلت هذه الآية في وصف الخمر وأن فيها إثما كبيرا أي معصية كبيرة لا ترضى الله، وفيها منافع هي منافع التجارة والربح المالي منها، وكانت تتجر فيها اليمن والطائف، وأيضا ربما كانت فيها منافع من عشرة قداح جمع قِدْح بكسر القاف، وهو سهم من شجر النبع الذي كانوا يتخذون القِسِيَّ والسهام منه، وليس في رأسه سنان، وسموا القداح العشرة: الفذَّ والتوءم، والرقيب، والحِلْس بكسر الحاء، والنافس، والمسبل، والمعلَّى، والسَّفيح، والمنيح، والوَغْد. والسبعة الأول تربح فلها حظوظ بترتيبها، والثلاثة الأخيرة لا تربح فليس لها حظوظ، وتسمَّى أغفالا جمع غفل أي ليس له علامة، أما السبعة الرابحة فلها علامة توضع في أسفل كل منها. وإذا أرادوا المقارمة اشتروا جَزورًا وأجَّلوا ثمنه إلى ما بعدها ويجعلونه عشرة أجزاء بعدد القداح، ويضعون القداح في كيس من جلد يسمى الرِّبابة، وله مخرج ضيق يخرج منه قدحان، ووكلوا به رجلا يسمونه الحُرْضة، ووراءه رقيب يأمره بابتداء الميسر قائلا: جَلْجل القداح أي حركْها، ويخرج قدح باسم مقارم، وإن كان رابحا أُعطى لصاحبه، وتعاد الإجابة، ومن خرجت لهم القداح الأغفال يدفعون ثمن الجزور. وإثم الميسر من إضاعة الوقت وما يحدثه من العداوة والبغضاء بين المتقامرين والبعد عن ذكر الله وعن التجارة، وكل ذلك إثم كبير لا يرضى الله. أما المنافع فما يعود على الرابح في المقار مما قد يوزعه على فقراء القبيلة من نصيبه.

ونزلت الآية الأولى بعد غزوة الأحزاب بأيام، وكانت قبلها مباحة بشهادة آية سورة النحل النازلة في مكة وهي قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا ﴾قال بعض المفسرين أي خمرا، فكان بعض الصحابة يشربونها. ولما نزلت الآية الأولى المذكورة ترك الخمر نفر ممن كان يشربونها، وشربها أو ظل يشربها نفر آخر إلى أن حُرِّمتْ تحريما باتًّا.

وتشير الآية الثانية إلى أن الله- جَلَّ شأنه- لم يحرم الخمر في الآية السابقة، وإنما هيأ بها لذلك حتى يكون تحريمها تدريجا، وبذلك ظل يتعاطاها بعض الصحابة ويقال إن نفرا منهم تعاطوها على طعام ثم قاموا إلى الصلاة فقدموا أحدهم فقرأ بعد الفاتحة سورة (الكافرون) وخلَّط فيها فأنزل الله تلك الآية الثانية ناهيا المؤمنين أن يصلوا وهم سكارى بل ينتظروا حتى يفيقوا من سكرهم ويصلوا أو كما قال- عزَّ شأنه- ﴿ حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾فإن السكران لا يدرى ما يقول ويخلِّط ويخطئ في القراءة. وكان الرسول صلى الله عليه وسلم: إذا قامت الصلاة يأمر مناديًا ينادى في الناس: لا يقرب الصلاة سكران.

والآية الثالثة في تحريم الخمر تحريما قاطعا، وقيل إنها خمر العنب وحده، وليس ذلك بصحيح إذ تشمل كل مسكر من شراب العنب المخمَّر ومن الأنبذة، وفى سنن أبى داود عن النعمان بن بشير أن الرسول صلى الله عليه وسلم: قال إن الخمر من عصير العنب والزبيب والتمر والحنطة والشعير والذرة. وفى الأشربة بالبخاري أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه خطب على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم: فقال إنه قد نزل تحريم الخمر، وهى من خمسة أشياء: العنب والتمر والحنطة والشعير والعسل. ويلحق بهذه المسكرات في عصرنا مسكرات المخدرات وبخاصة من الأفيون والحشيش والكوكايين. وأدَّى اجتهاد بعض فقهاء العراق إلى تحليل بعض الأنبذة إذا لم تؤدَّ إلى الإسكار المعتاد، غير أن الناس فيما بعد تجاوزوا ما لا يسكر إلى ما يسكر، ومن المجمع عليه بين جمهور الفقهاء أن ما يسكر فقليله حرام، وقد حدَّ الخليفة عمر بن الخطاب في الخمر.

وحرمت الآية الميسر أو القِمار مع الخمر، وألحق الحديث الأول بالخمر والميسر الكوبةَ ويراد بها ميسر الفُرْس من النَّرْد والشطرنج، وقال الشافعي إذا لم يصحبهما رهان ولم يعطلا عن الصلاة فإنهما مباحان، لأن الميسر المحرَّم ما يصحبه دفع المال وأخذه. والغبيراء في الحديث الأول شراب مسكر، وللرسول صلى الله عليه وسلم: أحاديث كثيرة في تحريم الخمر والنهى الشديد عن تعاطيها كما في الحديث الثاني إذ يلعنها، ويلعن شاربها وساقيها وبائعها ومشتريها وحاملها ومن تحمل إليه وعاصرها ومعتصرها والمنتفع بثمنها. وهو في الحديث الثالث يقول إن شارب الخمر يُنْزَعُ الإِيمان من فؤاده حين يشربها إذ لا يخاف ربَّه الذي حرَّمها تحريما قاطعا، ويقول في الحديث الرابع إن مدمنها لا يدخل الجنة، فقد ظل يعصى الله بشربها في دنياه مرارا وتكرارا غير آبه بتحريم الله لها

وأمره له باجتنابها. والله- جَلَّ شأنه- إنما يريد بتحريم الخمر والميسر أو القمار على المسلمين وعدهما رجسا من عمل الشيطان أن يظل عندهم حكم العقل سليما فلا يدخل عليه ما يذهبه أو يخدِّره أو يعطله أو يدفعهم إلى ضلال وغوابة. ومن المؤكد أنه أراد للأمة الإسلامية أن تكون أمة فاضلة إذ حرم عليها الخمر ولم يحرمها على شرْيعة سابقة، إعزازا لها. وبالمثل تحريمه عليها القمار حتى لا تنصرف عما يفيد المسلمين في الحياة. والأنصاب حجارة حول الكعبة كانوا في الجاهلية يذبحون قرابينهم عندها لآلهتهم، والأزلام قداح كانوا يستقسمون بها، فإن خرج القدح يأمرهم بما يريدون عملوا به وإن نهاهم عنه انتهوا، والأزلام والأنصاب تتصل بشعائر دينهم الوثني القديم، وكل ذلك رجس أي قذر محرم من عمل الشيطان ويجب أن تجتنبوه ليكتب لكم الفلاح في الدنيا والآخرة.

ويحذر الله- تبارك وتعالى- في الآية الرابعة من طاعة الشيطان، فإنه يريد بعصيانكم وإكبابكم على الخمر والميسر- ومثلهما ما جدَّ في عصرنا من المخدرات، أن تشيع بينكم العداوة والبغضاء بما يسوِّل لكم شرب المسكرات من التفاخر والتحاسد، والعداء وخاصة بين بعض المتعاطين في عصرنا للمخدرات من الشباب وآبائهم بسبب حادتهم إلى النقود. وتسبب المقامرة الغيظ والحسرة والغضب مما يدفع الأفراد في الأمة إلى التنافر وقد يؤول ذلك إلى عداوة وبغضاء، ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: لا تحاسدوا ولا تباغضوا وكونوا عباد الله إخوانا. والشيطان لا يبغي ذلك فحسب بل يبغي أيضا أن يصدكم عن ذكر الله وتلاوة قرآنه وعن الصلاة والتسبيح فيها لله، ويقول الله للمؤمنين: ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾وهو أمر بالانتهاء وتهديد شديد لمن لا ينتهون، ولذلك رُوى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين سمع هاتين الآيتين ونهايتهما قال: انتهينا انتهينا.

٦٣- الظلم

القرآن الكريم

قال الله تعالى:

١-وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٤٥)

المائدة: ٤٥

٢-وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ

إبراهيم: ٤٢

٣-إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣)

لقمان: ١٣

٤-مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ (١٨)

غافر: ١٨

الأحاديث:

١- عن أبى ذر رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فيما يروى عن ربه حديثا قدسيا قال: يا عبادي إني حرَّمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرَّمًا، فلا تظالموا (رواه مسلم في كتاب البر).

٢- عن أبى موسى الأشعري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله ليُمْلى للظالم فإذا أخذه لم يقتله. وقرأ: ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾. (رواه البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجة).

٣- عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من ظُلِم قِيدَ شبر من الأرض طُوِّقه من سبع أرضين يوم القيامة (رواه البخاري في المظالم).

٤- عن معاذ رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اتَّق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب (رواه البخاري في كتابي الزكاة والتوحيد، ورواه ومسلم في كتاب الإيمان).

وآية سورة المائدة الأولى نزلت تأييدا للقصاص الذي حكم به الرسول لليهود حين استفتوه في قتلهم لشخص فرفعوا الأمر إليه آملين أن يحكم بأخذ دية فحكم بالقصاص وهو نفس حكم التوراة، والله- لذلك- يقول لهم إن من لا يحكم بما أنزل الله في التوراة من القصاص فإنه يعد من الظالمين، إذ ظلم أهل القتيل بدون أن ينالوا من القتيل جزاء عدوانه الآثم. وقد شرع القصاص لحكم عظيمة، حتى يزدجر الناس ولا يرتكبوا هذا العمل الوحشي، وحتى لا يتمادوا في أن يسفك بعضهم دماء بعض، وحتى لا يقتل بالقاتل إلا قاتله، وحتى لا يترصد أهل القتيل قريبا من عشيرة القاتل أو أسرته فيقتلوه به، ولذلك يقول الله: ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾. وبذلك كان مَنْع اليهود لعقوبة القصاص المذكورة عندهم في التوراة ظلم شنيع، إلا أن يعفو أهل القتيل فيكون ذلك عن طيب نفس منهم وتراضٍ بينهم.وليس معنى ذلك إلغاء القصاص ولا الاستخفاف به فإن من يستخف به أو يلغيه يكون ظالما أقبح الظلم.

ويقول الله لرسوله في الآية الثانية لا تحسبنَّ أن الله إذا أجَّل الظالمين فلم يعاقبهم توا في الدنيا أنه غافل عنهم مهمل لهم ولن يعاقبهم على ظلمهم. والظلم في الآية يشمل ظلم الله بالكفر وظلم الناس بالعدوان عليهم وسلب حقوقهم، ويقول الله في الحديث القدسي الأول: يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما. ومن أسوأ صور الظلم ظلم الأقارب، وظلم الضعفاء، وعقابه شديد، فإن صاحبه يحرم من نعيم الجنة ويقذف به في عذاب الجحيم، ويقول الله في بقية الآية الثانية عن الظالمين وتأجيله هم العذاب: ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾ من شدة الخوف والفزع فلا تطرف لهم عين، وهو يوم القيامة، والظالمون فيه يُرَوْنَ- كما يقول الله عقب الآية- ﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ مسرعين ﴿ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ ﴾ مطأطئين لها ذلا (لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ) ولا تتحرك جفونهم من شدة الهول ﴿ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴾ خالية لا يعون شيئا. ثم يعذبهم الله- جزاء بغيهم وظلمهم- عذابا أليما، وهو ما يصوره بدقة الحديث الثاني إذ يقول الرسول إن الله يملى للظالم أي يؤخره، كما قال في آية أخرى: ﴿ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ﴾فهو يؤخر عذابه لتكثر آثامه

وتكثر ذنوبه، فإذا كتب عليه الموت وأخذه لم يمهله ولم يفلته. وقرأ الرسول بعد الحديث آية سورة هود: ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ والمقصود بالقرى قرى قوم لوط وهود وصالح وشعيب، ممن أرسل الله فيهم هؤلاء الرسل وأمثالهم، فظلوا يدعونهم إلى الإيمان بالله وهم يكذبونهم، والله يملي لهم ويطاولهم، حتى إذا لم يعد إلا أن يعتدوا على رسله أخذهم أخذ عزيز مقتدر.

والآية الثالثة تقول ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾وهو ظلم للنفس إذ يظلم المشرك نفسه، فيلغى عقله والتأمل في ملكوت السماوات والأرض، وكأنه لا يبصر شيئا من آيات الله في الكون ولا يسمع ما يتلو الرسول من أي الذكر الحكيم ويهمل النظر والفكر، فلا يؤمن بوجود ربه وأنه واحد يدبر الكون بل يعيش معيشة وقتية مادية يقدس أوثانا وأصناما يصنعها بيديه ويقدس آلهة لا حول لها ولا قوة. وهى معيشة حيوانية صرفة، ليس فيها حياة روحية ولا حياة عقلية، فأي ظلم للإنسان الوثني المشرك بربه أشد من هذا الظلم، وهو ظلم ينتهي به إلى عذاب مؤلم يصلاه في جهنم: ظلم في دنياه وظلم في آخرته. ويجانب ظلمه لنفسه ظلمه لربه، إذ لا يعترف بوحدانيته ولا بشرائعه التي أنزلها على رسله وخاصة الشريعة الإسلامية، فضلا عن أنه لا يعبده ولا يتمتع بعبادته وما تغذى به نفسه من المتاع الروحي.

وتنذر الآية الرابعة الظالمين بأنهم لن يجدوا لهم يوم القيامة حميما محبا لهم يشفق عليهم مما هم مقبلون عليه من العذاب، ولن يجدوا شفيعا يشفع لهم عند الله، فالجميع يتبرءون منهم ومما يحملون على ظهورهم من جرائم الظلم سواء في حقوق الله أو في حقوق الناس. والآية وعيد شديد للظالمين ويزيدها الرسول شدة إذ يقول في الحديث الثالث إن من ظلم شخصا قدر شبر من الأرض طُوِّقه من سبع أرضين أي يصير له الشبر يوم القيامة كطوق في عنقه، ويحذر الرسول صلى الله عليه وسلم: من ارتكاب معصية الظلم، ويكثر من هذا التحذير في أحاديثه وأن مرتكبها يغضب الله ويسخطه ويحرمه من نعيم الجنة في الآخرة، ومن أحاديثه المشهورة الحديث الرابع: اتَّق دعوة المظلوم وأحذرها إذ ليس بينها وبين الله حجاب. وروى مسلم في صحيحه بكتاب الإيمان عن الرسول أنه قال: من اقتطع حقا لمسلم بيمين أوجب الله النار له وحرَّم عليه الجنة، فسأله رجلا قائلا: وإن كان شيئا يسيرا يا رسول الله ؟ قال وإن كان عودا من شجر الأراك.

٦٤- الكبر- العُجْبُ

القرآن الكريم

قال الله تعالى:

١-وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٣٤)

البقرة ٣٤

٢-لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا

الفرقان ٢١

٣-قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٢)

الزمر ٧٢

٤-وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨)

لقمان ١٨

الأحاديث:

١- عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: في حديث قدسي: قال الله عزَّ وجل: العِزُ إزاري والكبرياء ردائي، فمن ينازعني عذبته (رواه مسلم في كتاب البر والصلة).

٢- عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقالُ ذَرَّةٍ من كبر (رواه مسلم في كتاب الإيمان).

٣- عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا ينظر الله يوم القيامة إلى مَنْ جَرَّ ثوبه خُيلاء (رواه البخاري ومسلم).

٤- عن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جَرَّ إزاره بطرا (رواه البخاري ومسلم).

والله- في الآية الأولى يأمر الملائكة بالسجود لآدم لفضله عليهم بالعلم كما أشار إلى ذلك قبل هذه الآية، فأذعنوا لأمره وسجدوا له ما عدا إبليس أبا الشياطين كما أن آدم أبو الناس جميعا. وأبى إبليس وامتنع أن يسجد لآدم ﴿ وَاسْتَكْبَرَ ﴾أي ازداد في كبره معتقدا أنه خير منه كما قال في سورة الأعراف لربه: ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ وصار إبليس بذلك من الكافرين لاستكباره عن القيام بما أمره الله. ويقول الله في الحديث القدسي الأول: إن العز والكبرياء أي العظمة مختصان بي لا يشاركني فيهما غيري كما لا يشارك أحد شخصا في إزاره وهو ما يلبسه الشخص من وسطه إلى قدميه ولا في ردائه الذي يغطى جسده جميعه. ويقول الله فيمن ادعاهما: فمن ينازعني ويخاصمني فيهما صار كافرا وعذبته. والله في الآية الثانية يصف في سورة الفرقان من طلبوا من الرسول من مشركي قريش رؤية الله أو إنزال الملائكة بأنهم استكبروا في أنفسهم وتعالوا عن الاستجابة إلى رسول الله وطغوا طغيانا كبيرا. والاستكبار: المبالغة في الكبر والتمادي فيه، وهو شعور ذميم بالاستعلاء على الناس. والمتكبر لا يصغي إلى الحق، بل يركب رأسه ولا يقبل نصحا ولا إرشادا، ويروى أن أحد المتكبرين في الزمن الماضي رآه الناس يجلس في حلقة مقرئ يقرأ بعض أي الذكر الحكيم ولما فرغ المقرئ من قراءته فوجئ مَنْ كانوا في الحلقة بقوله لهم أتعرفون لِمَ جلستُ إليكم؟ قالوا جلست لتسمع بعض كلام الله فقال لهم: لا، إنما أردت أن أتواضع لله بالجلوس إليكم. ومثل هذا المتكبر لا يرجى منه خير ولا ينفع فيه لوم، وعلى شاكلته كفار قريش الذين كان يعرض عليهم آيات الله رسولهُ محاولا بكل ما يستطيع أن يهديهم وينقلهم من ظلمات الوثنية والضلال إلى نور التوحيد لله وداه فيصموا آذانهم استكبارا واستعلاء. وفيهم وفى أمثالهم من المتكبرين المتغطرسين على الناس الذين ينزلون أنفسهم منهم منازل عليا يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: الحديث الثاني، وهو أنه لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر، ويقول رب العزة كما في الآية الثالثة للمتكبرين: ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها إلى أبد الآبدين. والمتكبر مذموم عند الناس ممقوت، ولو أنه فكر في نفسه ومآله وأنه من التراب وإلى التراب يعود لخفَّض من كبره واستبدل بعتوه وطغيانه لينا ورفقا بالناس في حديثه إليهم وتعامله معهم.

وعُجْبُ الشخص بنفسه أيضا مذموم إذ يستكثر فضله ويزهو بنفسه، فإن كان عالما ظن أنه فوق العلماء وإن كان أديبا ظن أنه فوق الأدباء، وإن كان غنيا تأنق في لبسه واختال في مشيه. وينفِّر لقمان ابنه من هذا الزهو والعجب بنفسه في آية سورة لقمان إذ ينصحه بقوله: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾أي لا تُمِلْ خدَّك مع عنقك معرضا عن الناس كناية عن شعوره باستعلائه عليهم، وهو تعبير قرآني بديع، إذ أصل الصَّعَر داء يصيب البعير في شِقَّيْ وجهه وعنقه، فيجعلهما مائلين، فعبَّر القرآن به عن ميل المعجب بنفسه لخدِّه تعاليا إعراضا عن مكلمة زهوا أو استعلاء ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ ﴾أي ذي خُيَلاء معجب بنفسه (فَخُور) يفخر بآبائه وبأعماله مدلا بها مزهوا. ويروى أن أعرابيا أتى رسول الله- كما مر بنا في غير هذا الموضع- فأصابته رعدة شديدة ولاحظ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم: فقال له هَوِّنْ على نفسك يا أخي إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القَديد بمكة، والقديد لحم يقطع شرائح ويملَّح ويجفَّف في الهواء والشمس أي أنه ابن سيدة عادية، وإنما قال الرسول ذلك قطعا لذرائع الخوف في نفس الرجل، ودفعا لما قد يستشعر هو من الخيلاء وتذليلا لشعور الاستعلاء، وتواضعا حميدا بين أصحابه. ومن ذلك ما روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه- وهو خليفة، إذ نادى: الصلاة جامعة، فلما اجتمع الناس صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله صلى الله عليه وسلم: ثم قال: أيها الناس: لقد رأيتُني أرعى على خالات لي من بنى مخزوم، فَيَقبِضْن لي القبضة من التمر والزبيب، فأظل اليوم وأي يوم فقال له عبد الرحمن بن عَوْف:والله يا أمير المؤمنين ما زدت على أنْ قصَّرت بنفسك، فقال عمر رضى الله عنه: ويحك يا بن عَوْف إني خلوت بنفسي فقالت أنت أمير المؤمنين فمن ذا أفضل منك فأردت أن أعرِّفها نفسها.ومن أهم أسباب العجب عند بعض الأشخاص كثرة المتزلقين إليه بالمديح، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم: ينهى عن مديح الشخص في وجهه، وروى عنه أنه قال: إياكم والتمادح فإنه الذبح إن كان أحدكم مادحا أخاه فليقل أحسب ولا أزكِّي على الله أحدا. وينبغي للعاقل أن لا يصدق مدحا مبالغا يوجهَّ إليه إذا قلَّ مدح يكون جميعه حقا وصدقا. وكان أبو بكر الصديق- رضى الله عنه- إذا مُدح قال: اللهم أنت أعلم بي من نفسي، ونفسي أعلم بي منهم، اللهم اغفرْ لي مالا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون. ويقول الله في سورة النجم آمرا عباده: ﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ ﴾. وهو تحذير للمسلمين من الشعور بالعجب لأعمالهم الحسنة، أو لأعمال

غيرهم كما جاء في حديث أم عطية فقد مات عثمان بن مظعون في بيتها فدخل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: رحمة الله عليك، فشهادتي عليك: لقد أكرمك الله. فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: وما يُدْريك أن الله أكرمه، إني لأرجو له الخير، وإني- والله- ما أدرى وأنا رسول الله ما يُفْعل بي. وقالت أم عطية. فلا أزكى أحدا بعدما سمعت هذا من رسول الله. وشاع هذا الحديث، فكان الصحابة إذا أثنوا على أحد قالوا لا نعلم عنه إلا خيرا.

٦٥- شهادة الزور

القرآن الكريم

قال الله تعالى:

١-وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ

البقرة ٢٨٣

٢-يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ للهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٣٥)

النساء ١٣٥

٣-فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠)

الحج ٣٠

٤-وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢)

الفرقان ٧٢

الأحاديث:

١- عن أبى بكرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا: يا رسول الله بَلَى قال: الإشراكُ بالله وعقوق الوالدين، وكان متكئا فجلس، فقال: ألا وشهادة الزور ومازال يكررها مرارا (رواه البخاري في الشهادات وفى مواضع مختلفة).

٢- عن أنس ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم: الكبائر، فقال: الشِّرْكُ بالله، وقتل النَّفْس، وعقوق الوالدين. ثم قال: ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قال: شهادة الزور (روه مسلم في كتاب الإيمان).

٣- عن خريم بن فاتك الأسدي قال: صَلَّى رسول الله- صلى الله عليه وسلم- صلاة الصبح، فلما انصرف منها (أي قضاها) قام قائما فقال: عدلت شهادة الزور الإشراكَ بالله عزَّ وجَلَّ ثم تلا آية سورة الحج المذكورة (رواه ابن حنبل في مسنده).

٤- عن زيد بن خالد الجهني قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألا أخبركم بخير الشهداء؟ الذي يأتي بشهادته قبل أن يُسْألها (رواه مسلم في كتاب الأقضية).

والله- جَلَّ شأنه- في الآية الأولى ينهى عن كتمان الشهادة بعد قوله في الآية قبلها: ﴿ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ﴾لتحمُّل الشهادة، فيحضرون للنطق بها وإعلانها إحقاقا للحق، ويجب عليهم أن لا يكتموها ولا يخفوها بقول كلام مبهم، وزيادة في التحذير من كتمانها، يقول الله: ﴿ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ﴾أي يكون مذنبا ذنبا كبيرا.

ويأمر الله في الآية الثانية المؤمنين بأن يلتزموا بالقسط أي العدل في جميع أحوالهم وأمورهم ﴿ شُهَدَاءَ للهِ ﴾أي تشهدون الشهادة العامة له الصادقة ابتغاء وجه الله بحيث لا يخالطها تبديل ولا تحريف وكتمان ﴿ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾ أي تشهدون الحق ولو عاد منه ضرر عليكم فإن الله سيجعل لكم فرجا من كل ضيق، وبالمثل لو عاد منه ضرر على الوالدين والأقربين. وكان العرب في الجاهلية يجعلون من الحقوق عليهم الانتصار لآبائهم وأقربائهم فأبطلت الآية هذه العصبية، وأوجبت على المسلم أن ينتصر للحق ولو كان فيه ضرر أو أذى لأبويه وأقاربه. ويقول الله إن كان المشهود له غنيا أو فقيرا فلا تشهدوا لهما إلا بالحق ﴿ فَاللهُ أَوْلَى بِهِمَا ﴾منكم وأعلم بما فيه صلاح شأنهما. ويقول: ﴿ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا ﴾أي فلا تتبعوا الهوى والعصبية لأنفسكم وآبائكم وعشائركم لتعدلوا وتأخذوا أنفسكم بالعدل الذي أوجبه الله عليكم في جميع أموركم وشئونكم وشئون آبائكم وذويكم ﴿ وَإِنْ تَلْوُوا ﴾ أي تعدلوا عن الصدق في الشهادة وتحرِّفوا فيها أو تتعمدوا الكذب أو ترفضوا أداءها ﴿ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾وهو وعيد لمن يكذب في الشهادة أو يحرِّف فيها أو يغير، إذ تصبح شهادة زور أو كذب وباطل وقد شدد الله في النهى عنها كما في الآية وكما في الحديثين الأولين إذ قرنها الرسول إلى الإشراك بالله.

والرسول صلى الله عليه وسلم: إنما يصدر في قَرْنها بالإِشراك بالله عن الآية الثالثة إذ جعلها الله قرينة لعبادة الأوثان والإِشراك به وجعلها الرسول صلى الله عليه وسلم: من أكبر الكبائر في الحديثين السابقين، كما يقرنها بالآية الكريمة في الحديث الثالث إذ قال: عدلتْ شهادة الزور الإِشراك بالله، وتلا الآية.

ويعدِّد الله في آخر سورة الفرقان خصال المؤمنين الفاضلة ويذكر من بينها أنهم لا يشهدون في قول سمعوه ولا في فعل رأوه شهادة زور كما في الآية الرابعة، فهم لا يكذبون في شهادتهم أبدا بل دائما يقولون الصدق والحق. واللغو: الكلام الغث، والمؤمنون إذا مروا بأهله انصرفوا عنهم و(مَرُّوا كِرَامًا) متنزِّهين عما هم فيه من اللغو كما قال تعالى في سورة القصص: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾. وفسرت كلمة يشهدون في الآية الرابعة تفسيرًا آخر بمعنى يحضرون أي أنهم لا يحضرون الزور أي الباطل من كلام المشركين وملاهيهم وعباداتهم، أو من كلامهم السفيه عن الرسول والمؤمنين وإذا مروا بهم أعرضوا ومضوا لا يلتفتون إليهم.

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: في الحديث الرابع: ألا أخبركم بخير الشهداء أي الشهود جمع شهيد بمعنى شاهد، ثم يقول: الذي يأتي بشهادته قبل أن يُسْألها أي من عنده شهادة لشخص بحق من حقوقه، ولا يعلم الشخص أنه شاهد له بحقه فيأتيه ويخبره أنه شاهد له. ومثل هذا الشاهد جدير بثناء الرسول عليه. ولا تعارض أو تناقض بين هذا الحديث والحديث الذي رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما من قول الرسول صلى الله عليه وسلم: ألا أخبركم بشر الشهداء؟ الذين يشهدون قبل أن يُسْتَشْهدوا أي يطلبوا للشهادة فإن المراد بهم في هذا الحديث شهداء الزور، وهم أنفسهم المذكورون في حديث لأبي هريرة، وفيه يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: خير أمتي القرن الذين بُعثت فيهم ثم الذين يلونهم.. ثم يخلف قوم يَشْهدون ولا يُسْتشهْدون. رُوى هذا الحديث بصور متعددة، والمراد دائما شهداء الزور الذين ينتظرهم عند الله في الآخرة عذاب الجحيم الأليم.

٦٦- الحسد

القرآن الكريم

قال الله تعالى:

١-بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (٩٠)

البقرة ٩٠

٢-وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ

البقرة ١٠٩

٣-أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ

النساء ٥٤

٤- قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥)

الفلق ١، ٢، ٥

الأحاديث:

١- عن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، إياكم والحسد، فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب (رواه أبو داود في سننه).

٢- عن أنس بن مالك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا ولا تقاطعوا وكونوا عباد الله إخوانا (رواه مالك في الموطأ وابن حنبل في مسنده والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي).

٣- عن عبد الله بن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلَّطه الله على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضى بها ويعلِّمها (رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين).

٤- عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالا فهو يتصدقُ به آناءَ الليل وآناء النهار (رواه مسلم مع الحديث السابق في كتاب صلاة المسافرين).

الآية الأولى نزلت في اليهود، وهى تسجل عليهم ذمَّ ما صنعوه واعتقدوه من أنهم اشتروا أنفسهم أي ابتاعوها بكفرهم بمحمد وما أُنزل عليه من القرآن، طلبا للدنيا وإبقاء على ما لهم فيها من الجاه، وبئس هذا العرض إذ كفروا بالقرآن والإيمان بمحمد مؤثرين المتاع الدنيوي على ما عند الله من النعيم الأخروي، ويقول الله إنهم اختاروا ذلك ﴿ بَغْيًا ﴾وظلما وحسدا ذميما ﴿ أَنْ يُنَزِّلَ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾رسالته ﴿ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾غير اليهود، وكانوا يزعمون أنهم المخصوصون بالنبوة دون العرب وغيرهم من الشعوب، والله يرد عليهم بأن النبوة فضل ونعمة يسبغها على من يشاء من عباده (فَبَاءُوا بِغَضَبٍ) من الله ﴿ عَلَى غَضَبٍ ﴾ والغضب الأول لكفرهم بعيسى وما أرسل به من الإنجيل، وقيل بل عبادتهم للعجل،وهو عجل أبيس الذي كانوا يعبدونه في مصر مع المصريين كما قلت في تفسير آيته بسورة البقرة. والغضب الثاني لكفرهم برسولنا وكتابه كما سجلت ذلك عليهم الآية، ويتوعدهم الله بعذاب مهين أشد الهوان.

وتسجل الآية الثانية على أهل الكتاب وخاصة من اليهود أن كثيرين منهم يتمنون لو رجع المسلمون بعد إيمانهم كفارا كما كانوا في الجاهلية يعبدون الأوثان ويشركون بالله ﴿حَسَدًا﴾ للمسلمين على اعتناقهم للدين الحنيف. وهو حسد متأصل في ذات أنفسهم مستقر فيها استقرارا شديدا، ويقال إن الآية نزلت في حُيَيّ بن أخطب وأخيه أبى ياسر اليهوديين، وكانا من أشد اليهود عداوة للرسول وحسدا على ما أنزل الله عليه من نعمة رسالته العظيمة، وكانا يحاولان بكل ما يستطيعان رد الناس عن الإسلام فنزلت الآية فيهما وفى أضرابهما، ناعية عليهم حسدهم للرسول ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾وأن رسالة محمد صادقة كل الصدق لما تقوم عليه من التوحيد الإلهي

والإيمان بالأنبياء والرسل. ويمكن أن يكون المراد بالحق ما وجدوه عندهم مكتوبا في التوراة- ومثله في الإنجيل- عن محمد ودينه الحنيف، غير أنهم صَمُّوا آذانهم وكفروا به حسدًا وبغيا.

والآية الثالثة نزلت- بالمثل- في أهل الكتاب وخاصة اليهود منكرة عليهم حسدهم الناس على ما رزقهم الله من فضله. ويمكن أن يكون المراد بالناس الرسول وحسدهم له لما منَّ الله عليه من النبوة العظيمة، ويمكن أن يكون المراد بالناس المؤمنين يحسدونهم لما منَّ الله عليهم من الهدى والإيمان برسوله ورسالته وقرآنه العظيم. والحسد: تمنى زوال النعم عن صاحبها،سواء كانت نعمة دنيا ومال أو كانت نعمة دين وصلاح، ويقول عمر بن الخطاب: ما من أحد عنده نعمة إلا وجدتَ له حاسدا. والحسد خصلة ذميمة من الكبائر العظمى، لا لما ينطوي عليه من إرادة زوال النعمة عن صاحبها فحسب، بل أيضا لأنه غضب على قضاء الله وقسمته للنعم والأرزاق بين عباده. ولكل نار ما يطفئها إلا نار الحسد، فإن شيئا لا يطفئها. ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الأول: إياكم والحسد، فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب، ومنه يتولد الحقد على الناس وما أنعم الله به عليهم، والحقد أصل كل شر.

والحسد أول ذنب عُصِي الله به في السماء، وأول ذنب عُصى الله به في الأرض. أما في السماء فلأن الله لما علَّم آدم الأسماء كما في سورة البقرة ولم يعلمها الملائكة قال لهم تكريما لعلمه: ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾وكأنه فَضَّله عليهم بسبب علمه، فسجدوا جميعا إلا إبليس أبى واستكبر، ولما راجعه رب العزة عن سبب امتناعه من السجود لآدم قال:- كما في سورتي الأعراف وصَ: ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾. وهو حسد منه لآدم: أن يسجد له، وعاقبه الله عقابا أليما إذ طرده من الجنة والملأ الأعلى مذموما مدحورا. ولعنه هو وذريته من الشياطين وتوعده هو وأتباعه ليملأنَّ جهنم منهم أجمعين. أما أول ذنب عُصى الله به في الأرض فذنب قابيل أخي هابيل ابني آدم، وكان قابيل- كما تقول التوراة- فلاحا يزرع الأرض، وكان هابيل راعيا لغنم، وقرَّب كل منهما لله قُرْبانا، أما قابيل فمن ثمار زرعه، وأما هابيل فقرَّب من غنمه، فتقبَّل الله- كما في سورة المائدة- قربان هابيل، ولم يتقبل قربان قابيل لأنه كانت له خطيئات، فجعله ذلك يحسد أخاه هابيل لتقبل الله قرْبانه، وقال لأخيه هابيل، ﴿ لَأَقْتُلَنَّكَ ﴾فقال له: (إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ) الذين لا يقترفون خطيئات ﴿ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ

رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾أن ينتقم منى إن أنا ارتكبت هذا الذنب الكبير، وقال له: ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾فتردَّد قابيل بين خوفه من ربِّه وقتله لأخيه ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُه﴾ أي سوَّلت وحسنَّت ﴿ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ في الدنيا والآخرة.

ويعلم الله رسوله في الآيات الأخيرة أن يتعوذ به من المخلوقات الشريرة قائلا له: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ أي الصبح ﴿ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾من السباع والهوام وكل ما يحدث شرا من الناس وغير الناس ﴿ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يوصى الصحابة دائما كما جاء في الحديث الثاني بأن لا يتحاسدوا ولا يتباغضوا ولا يتنافروا ولا يتقاطعوا إذ هم إخوة وينبغي أن يسود دائما بينهم الإخاء والود الصادق. ويطلب الله في الآية من رسوله والمسلمين أن يتعوَّذوا من شر الحاسد لا لإضرار حسده بهم، وإنما لما فيه من شر كامن منطو عليه. والحسد غير الغبطة، إذ هي تمنى المرء أن يكون له من النعمة مثل من يغبطه دون أن يتمنى زوالها عنه، وهى المقصودة في الحديثين الثالث والرابع، وكأن الرسول صلى الله عليه وسلم قال في الحديث الثالث: لا غبطة إلا في خصلتين: إنفاق رجل ثرى لماله في الحق، وحكمة أو حصافة عن علم وتفقه فهو يعلِّمها ويقضى بها. وكأنه قال في الحديث الرابع، لا غبطة إلا في خصلتين: تلاوة الرجل القرآن في ساعات الليل والنهار، وثراء يجعل صاحبه يتصدق بماله ليلا ونهارا.

٦٧- الكذب

القرآن الكريم

قال الله تعالى:

١-وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (١١٦)

النحل ١١٦

٢-وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢١)

الأنعام ٢١

٣-وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١٠)

المائدة ١٠

٤- وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ

الزمر ٦٠

الأحاديث:

١- عن ابن عمر رضى الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أَفْرَى الفِرَى أنْ يُرِىَ الرجل عينيْه ما لم ترياه (رواه البخاري).

٢- عن ابن مسعود رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إياكم والكذب فإن الكذب يهدى إلى الفجور، وإن الفجور يهدى إلى النار، وما يزال الرجل يكذب حتى يكتب عند الله كذابا (رواه البخاري في كتاب الأدب ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب).

٣- وعن ابن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أعظم الخطايا اللسان الكذوب (رواه ابن كثير في تفسيره).

٤- عن أنس بن مالك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مَنْ تعمَّد عليَّ كذبا فَلْيَتَبَوَّأْ مقعده من النار (رواه البخاري في كتاب العلم).

الله جَلَّ وعزَّ في الآية الأولى يحذِّر الكفار من أن يتقوَّلوا عليه ما لم يقله، إنهم يحللون ما يريدون ويحرِّمون ما يشاءون ناسبين ذلك إلى الله كذبا، ويقول إنهم لا يفلحون، ومن يفلح منهم فإنه متاع قليل مؤقت في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب أليم. ويقول الرسول إن أفْرَي الفِرَي أي أكذب الكذبات وأسوأها أن يحدِّث الرجل عن شيئا كذبا، ويقول إنه رآه بعينيه وهو لم يره، ومثله يكون الكذب له عادة حتى ليقول أبصرت كذا أو سمعت كذا وهو لم يسمعه ولم يبصره. ومن اعتاد الكذب أصبح الصدق عليه صعبا عسيرا حتى لو أراده لم يستطع، وحتى لكأنما يصبح الكذب الذي تعود عليه طبعا له، فكلما حدَّث كذب، مما يصغِّر قدره عند الناس. وقد يؤول به الكذب أنه لو حدَّثهم بخبر صادق لم يصدقوه واتهموه، وبذلك لا يكون له عند إخوانه حديث مصدَّق. وينبغي أن يكون الإنسان دائما صادقا في قوله حتى يأنس إخوانه لما يسمعونه منه ويصدقونه، ولذلك يقول الرسول في بعض حديثه: «تجنَّبوا وإن رأيتم أن فيه النجاة فإن فيه الهلكة» ويقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه: «لأن يَضَعني الصدق خير إليَّ من أن يرفعني الكذب» وهما ينهيان عن الكذب حتى لو جَرَّ مغنما أو نفعا. ومن أسوأ صور الكذب ما يسوقه شخص عن عدوٍّ له بغرض التشفي منه، فينسب إليه قبائح هو بريئ منها ظانا أن في ذلك خير له، والشر لا يأتي بخير.

ويقول الله- تقدس اسمه- في الآية الثانية إن أظلم ما يفتريه المشركون على الله أكاذيب الشرك به وكل ما يتصل بعقيدتهم الوثنية من آلهة وشعائر، فقد بلغوا في ذلك غاية الظلم لربهم، كما بلغوها في تكذيبهم لرسوله وما جاء به من آيات الهدى القرآنية. وسجل الله عليهم أنهم لا يفلحون في الدنيا إذ خسروا فيها الإيمان به وبرسوله، ولا يفلحون في الآخرة لما ينالهم من عذاب النار. ويقول الله- عزَّ سلطانه- في الآية الثالثة إن الكافرين المكذبين لآيات القرآن هم أحق العاصيين بالجحيم ويحذر الرسول في الحديث الثاني من الكذب وسوء عاقبته، فإن الكذب يوصِّل إلى الفجور والمراد به في الحديث الأعمال السيئة. ويقول إن الفجور يوصل صاحبه إلى النار والعذاب الأليم، ويقول إن الرجل ما يزال يكذب حتى يصبح الكذب له عادة ويكتب عند الله كذابا، وتسقط عند الناس منزلته.

ويتوعد الله في الآية الرابعة الذين يردِّدون تكاذيب الشرك وأباطيله باسوداد وجوههم يوم القيامة، وهو إما اسوداد حقيقي وإما كناية عن أنهم يستشعرون حينئذ الغم والكآبة والحسرة كما جاء في سورة آل عمران: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ والابيضاض لوجوه المؤمنين إما حقيقة، وإما كناية عن نضرتها واستبشارها، كما قال الله في وصفها يوم القيامة: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ﴾. وكما يَّتسم وجه الكذاب في الآخرة بالكآبة والغمّ يتسم في الدنيا بالريبة في كلامه، ولذلك قالوا الوجوه مَرايا تريك أسرار البرايا. وخطأ جسيم أن يعوِّد شخص لسانه الكذب، ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم حديثه الثالث: أعظم الخطايا اللسان الكذوب، ويبدو أنه حدث في زمن الرسول أن بعض الأشخاص نقل عنه كلاما لم يصدق فيه، وآذاه ذلك، فقال حديثه الرابع المشهور: من تعمَّد عليّ كذبا فَلْيتبوَّأ مقعده من النار. وهو بذلك يتوعد من يكذبون عليه في مسائل الدين بنسبة أحاديث مكذوبة إليه، ويقول إن الله سيجزيهم بعذاب أليم في الجحيم. ويروى بعض المحدثين أن الرسول صلى الله عليه وسلم رخَّص في الكذب لضرورة، إذ رُوى عنه أنه قال: لا يصلح الكذب إلا في ثلاثة مواضع: الحرب فإنها خُدعة، والصلح بين اثنين، والرجل يُرْضي زوجته. والكذب على العدو في الحرب جائز لأنها كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم خدعة. ولعل الرسول لا يريد إباحة الكذب الصريح، إنما يريد المعاريض، ومن ذلك ما يروى من أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان يسير خلف الرسول في الهجرة فتعرَّض له بعض من يعرفونه من العرب وسألوه: مَنْ معك؟ فقال: هادٍ يهديني السبيل، فانصرفوا يظنون أنه دليل يرشده إلى الطريق، وهو إنما يريد هداية سبيل الهدى والرشاد، فصدق في قوله. ويروى عن الرسول قوله: إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب. والكذب عامة من أقبح الخصال وأسوئها، ولا يصدر إلا عن مهانة نفس، ويروى عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه سُئل: أيكون المؤمن جبانا؟ قال: نعم فقال السائل أفيكون بخيلا قال: نعم، فقال السائل أفيكون كذابا قال: لا. وناهيك بهذه الإجابة محذرة منه ومن شره، ودافعه لنا أن نحذِّر أبناءنا منه وأن نحثّهم على أن يكون دائما الصدق دَيْدَنهم مهما كلفهم، ويؤثر عن يحيى البرمكي وزير هرون الرشيد قوله في ذمه إن صاحبه لا يستطيع خلاصا من آفته ولا بُرْءًا من دائه،

ورأينا شارب الخمر المدمن ينزع عنها اللص، واللص السارق يقلع عن سرقته، وصاحب الكبائر من الذنوب يرجع عنها، ولم نر كذَّابا تخلَّى عن كذبه وصار صادقا.

٦٨- اليمين الكاذبة- العفو عن اللغو في اليمين

القرآن الكريم

قال الله تعالى:

١-وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا

البقرة: ٢٢٤

٢-إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ

آل عمران: ٧٧

٣-لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ

المائدة: ٨٩

٤- اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (١٦)

المجادلة: ١٦

الأحاديث:

١- عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس أي الكاذبة (رواه البخاري وابن حنبل في مسنده والترمذي والنسائي).

٢- عن ابن عمر رضى الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك (رواه البخاري في الأيمان والنذور والترمذي وابن حنبل في مسنده).

٣- عن أبى هريرة رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مَنْ حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليكفِّر عن يمينه، وليفعل الذي هو خير (رواه البخاري في كتاب الأيمان والنذور ومسلم في كتاب الأيمان وابن حنبل في مسنده والترمذي).

٤- عن السيدة عائشة رضى الله عنها قالت: أُنزلت آية سورة المائدة ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ ﴾ في قول الرجل: لا والله، وبلى والله (رواه البخاري في تفسير السورة).

والآية الأولى تنهى المؤمنين أن يجعلوا لله عرضة لأيمانهم، واليمين مؤنثة، وهى الحلف وجمعها أيمان، ومعنى عرضة: حاجز، أي لا تجعلوا اسم الله في أيمانكم حاجزا أو مانعا من أن تقدِّموا برا، فتحلفوا أنكم لا تأتونه. ويمكن أن تكون عرضة بمعنى معرَّضا أي لا تجعلوا الحلف بالله معرضا لمنع فعل بر أو خير. والآية- بذلك- تنهى عن الإسراع في حلف من شأنه أن يمنع برا أو خيرا أو طاعة لله حتى لا يتعرَّض الحالف- إذا راجع نفسه- إلى الحِنْث في يمينه. ويقول الله تعالى في سورة النور: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ ﴾أي ولا يحلف ﴿ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ ﴾في المال ﴿ أَنْ يُؤْتُوا ﴾ أي لا يَصِلُوا ﴿ أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ﴾إن أداهم إلى هذا الحلف عمل لهم غير صالح أو إساءة وأذى. وهو غاية الترفق والعطف على من ذكرهم بهذه الآية، وفى الوقت نفسه نهى واضح للمؤمن أن يجعل اليمين بالله عرضة لأن يمسك عن فعل خير. وأسوأ من ذلك أن يحلف الكاذب على فعل شيئا لم يفعله بأنه فعله أو يحلف على قول له كاذب بأنه صادق، وأشد من ذلك كله سوءًا حلفه على شهادة زور بأنه صادق وخاصة ما يتصل بالأعراض والأموال. وجعل الرسول في الحديث الأول اليمينَ غموسا لأنها تغمس صاحبها في الإثم ويريد بها اليمين التي يقتطع بها الحالف مال امرئ مسلم من أرض أو غير أرض،وسوى بينها في الإثم وبين الشرك بالله وقتل النفس تعظيما لإثمها وحرمته.

والآية الثانية نزلت في يهود المدينة بدليل ما نَعتهم الله به في سورة البقرة من مثل: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي.. وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾. وعهد الله في الآية هو عهد موسى لهم في التوراة بأن يعملوا بها، وخالفوها، ويمكن أن تكون الآية عامة لليهود ومن يصنع صنيعهم من المسلمين مخالفين عهدهم لله بالأمانة وما عاهدهم عليه الرسول من عدم التعلق بالمتاع الدنيوي وأن لا يحلفوا كذبا بأثمان زهيدة، فهؤلاء اليهود ومن يتشبه بهم ﴿ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ ﴾ أي لا نصيب

لهم فيها ولا حظ منها. وفى صحيح مسلم وكتب السنن عن أبى ذر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم، وعدَّ بينهم المنفق سلعته بالحلف الكاذب، وفى مسند ابن حنبل عن عدى ابن عميرة الكندي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مَنْ حلف بيمين كاذبة ليقتطع بها مال أد لقي الله- عزَّ وجَلَّ- وهو عليه غضبان. وفى صحيح مسلم عن إياس بن ثعلبة الحارثي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من اقتطع حق امرئ مسلم بيمين فقد أوجب الله له النار وحرَّم عليه الجنة.

واليمين إنما يكون برب العزة- جَلَّ جلاله- وقد نهى الرسول عن الحلف بغير الله وعظَّم ذلك في الحديث الثاني، فقال إن من حلف بغيره فقد كفر أو أشرك، ولعله يقصد ما كان العرب يحلفون به قبل إسلامهم من اللات والعزى فإن ذلك يعد ارتدادا عن الدين وكفرا وشركا بالله. وفى الحديث أن الرسول نهى عن الحلف بالآباء وهو ليس نهى تحريم إنما هو نهي كراهة كما ذهب إلى ذلك المالكية والشافعية، والعامة في مصر يكثرون من الحلف بحياة الأب وبتربته أو قبره، وهو مكروه، وبالمثل كل حلف بغير الله. وفتح الرسول صلى الله عليه وسلم الباب للحالف على فعل شيئا لكي يمضى في تصميمه أو يعدل نهائيا ويكفِّر عنه إذا حنث على نحو ما يوضح ذلك الحديث الثالث وأن واجب المقسم بربه إن كان المحلوف عليه هوا لخير أن يحنث في يمينه ويأتيه مكفرًا عنه.

والله- تبارك اسمه- في الآية الثالثة لا يؤاخذ الحالف باللغو في يمينه، بل يعفو عنه، وقيل هو اليمين في الهزل، وقيل في الغضب، وقيل هو الحلف على ترك المأكل والملبس والمشرب مستدلين بقوله تعالى: ﴿ لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ ﴾. والصحيح أن اللغو في اليمين هو اليمين الذي يقوله الشخص دون نية وقصد وقد فسرته السيدة عائشة في الحديث الرابع بأنه مثل قول الرجل: لا والله وبلى والله من غير قصد لتحقيق اليمين. إنما الذي يؤاخذ به الشخص ما عقد ووثق به اليمين من النية والقصد كما قال الله في آية سورة البقرة: ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾.

ويقول الله- جَلَّ شأنه في الآية- إن كفارة اليمين التي صممتم عليها وقصدتموها إطعام عشرة مساكين ﴿ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ ﴾أي مما تطعمون مه أهلكم ﴿ أَوْ كِسْوَتُهُمْ ﴾ من إزار أو

عباءة أو ثوب ﴿ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾وقد بطل تحرير الرقاب أو العبيد، فالكفارة إذن بالاختيار بين الإطعام لعشرة مساكين أو كسوتهم ﴿ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ ﴾ عنده ما يطعم به عشرة مساكين أو يكسوهم ﴿ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ﴾ قيل متتابعات وقيل يجوز أن تكون متفرقة. وتلك هي كفارة اليمين الشرعية، وينبغي أن لا تترك بدون تكفير.

والآية الرابعة في المنافقين الذين يوالون المسلمين في الظاهر ويهود المدينة في الباطن، وهم لا مع اليهود ولا مع المؤمنين (مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ) وكانوا إذا لقوا الرسول والمؤمنين حلفوا لهم أنهم مثلهم مؤمنون، وهم يعلمون أنهم يكذبون في أيمانهم. ويقول الله في الآية إنهم اتخذوها جُنَّةً أي وقاية من مشاعر المسلمين ضدهم ليتمكنوا من صَدَّ الناس عن سبيل الله بما يرمون به الإسلام من تهم باطلة يحلفون عليها بهتانا، كما يحلفون أنهم مؤمنون صادقون، ويتوعدهم الله بعذاب شديد قائلا: ﴿ فَلَهُمْ ﴾في مقابلة ما صنعوا من الكذب في أيمانهم باسم الله العظيم ﴿ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾شديد.

٦٩- الخداع- اللعن- السبّ

القرآن الكريم

قال الله تعالى:

١-يُخَادِعُونَ اللهَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ

البقرة ٩

٢-وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا

آل عمران ١٨٦

٣-وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (٥٨)

الأحزاب ٥٨

٤- وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهَّ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُّ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٢٥)

الرعد ٢٥

الأحاديث:

١- عن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مَن خَبَّب[1] زوجة امرئٍ فليس منا (رواه ابن حنبل في مسنده وابن ماجة).

٢- وعنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مَن غشَّنا فليس منا (رواه مسلم في حديث بكتاب الإيمان).

٣- عن ابن مسعود رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: سِباب المسلم فسوق (رواه البخاري في كتاب الإيمان ومسلم وابن حنبل في مسنده والترمذي والنسائي).

((١ خبب : خدع وأفسد.

٤- عن ثابت بن الضحاك الأنصاري رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لَعن المؤمن كقتله (رواه البخاري في كتاب الأيمان والنذور).

الآية الأولى في المنافقين وخداعهم لله والمؤمنين في إظهار أنهم يؤمنون بالله ورسوله ويبطنون الكفر. ويمكن أن يفسر خداع الله لهم بأنه إملاؤه لهم وتأجيل عقابهم إلى يوم القيامة، وخداع المؤمنين بأنهم يتقبلون الظاهر منهم وما يقولون من أنهم مؤمنون وهم متأكدون أنهم يخادعونهم. وهذا التفسير على أساس أن فعل يخادع يقتضي أن يكون الخداع بين طرفين. ويمكن أن يكون يخادع بمعنى يخدع ولا يقتضي مخادعة بين طرفين كما في مثل عاقبت اللصَّ أي أنهم يخدعون الله والذين آمنوا، ويقول الله: ﴿ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ ﴾أي أن خداعهم لا يتعداهم فهم إنما يخدعون أنفسهم.

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الأول: من خَبَّب أي خدع زوجة شخص وأفسدها على زوجها فليس من المسلمين لأنه أتى فعلا منكرا أشد الإنكار. والخداع فعل مذموم، وهو إظهار خلاف ما تخفيه، ويكون على صور كثيرة، ومنه التدليس، يقال دلَّس في الشيء إذا لم يظهر عيبه، ودلَّس في البيع للمشترى إذا لم يبين له عيب ما يشتريه. ويستعمله المحدِّثون في الإسناد، يقولون دلَّس الراوي للحديث، إذا رواه عن شيخ كبير عاصره ولم يسمعه منه موهما أنه سمعه منه. هذه إحدى صورتي التدليس عند المحدثين. والصورة الثانية أن يسمى شيخه باسم لا يعرف به. ونُسبت الصورتان من التدليس إلى جماعة من المحدثين في بعض ما رووه.

ويحرم الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الثاني الغِشَّ قائلا: مَن غَشَّنا فليس منا أي أن الغش وهو نقيض النصح ليس من أخلاقنا الإسلامية ولا من سُنَّنا، إذ هو خيانة وضرب من الخديعة، بإيصال شر إلى شخص دون علمه، ومن أسوئه الغش في البيع كخلط الرَّديء بالجيد ومزج اللبن بالماء. ويروى أن الرسول صلى الله عليه وسلم مرَّ في السوق على رجل أمامه كومة بُرٍّ أي قمح، فأدخل يده الكريمة فيها، فنال أصابعه بعض الليل، فقال ما هذا يا صاحب البر قال أصابته السماء يا رسول الله، قال: ألا جعلته فوق البر حتى يراه الناس، مَن غشَّنا فليس منا. ولم أرو الحديث بلفظه إنما رويته بمعناه. وواضح أن تحريم الغش لما فيه من خيانة واضحة.

ويقول الله- تقدَّس اسمه- في الآية الثانية للمؤمنين إنكم ستسمعون من أهل الكتاب من اليهود أذى كثيرا بالقول مما كان ينظم شعراؤهم أمثال كعب بن الأشرف، وكان يرثى قتلى قريش في غزة بدر، ويؤذى الرسول صلى الله عليه وسلم، ويكثر من سبِّ المسلمين. ويقول الله للمؤمنين إنكم ستسمعون من مشركي قريش وغيرهم ما يؤذيكم وكانت معارك الهجاء قد اضطرمت بين شعراء مكة قبل فتحها من أمثال ابن الزِّبَعري وأبى عزّة وهبيرة بن أبى وهب وأبى سفيان بن الحارث وبين شعراء المدينة من أمثال حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة. وأمر الله المؤمنين في بقية الآية بالصبر على هذا الأذى قائلا: ﴿ وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾. وصبروا وفتحت لهم مكة سلما واعتنقت الجزيرة العربية جميعها الإسلام.

ومعنى الأذى في الآية الثالثة مثل معناه في الآية السابقة أي أذى القول بدليل قول الله في نهايتها ﴿ فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا ﴾أي قولا كاذبا وهم من يؤذون المؤمنين والمؤمنات بأهاج وسباب لم يكتسبوه أي أنه كذب وافتراء عليهم. ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم كما في الحديث الثالث: سباب المسلم فسوق ومعصية كبرى فينبغي أن يحذر المسلم سب أخيه، حتى لا يقع في إثم يعاقبه الله عليه عقابا أليما. وعن السيدة عائشة رضى الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: أي الربا أربى عند الله؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال: أربى الربا عند الله استحلال عرض امرئ مسلم، ثم تلا الآية المذكورة. وكما نهى الرسول المؤمن عن سب أخيه الحي نهاه أيضا عن سب أخيه الميت قائلا: لا تسبّوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدَّموا من عمل. والله- جَلَّ شأنه- يقول في الآية الرابعة إن الذين يبطلون عهد الله من بعد ميثاقه ولا يوفون به، وعهد الله: ما أوصى بمراعاته وهو أن لا يعبدوا غيره ﴿ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ﴾: من الإيمان بجميع الأنبياء ﴿ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ باعتقاد ديانات وشرائع باطلة ﴿ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾في الدنيا والآخرة.

واللعنة في الآية العذاب والطرد من رحمة الله، ﴿ لَهُمُ اللَّعْنَةُ ﴾دعاء من الله عليهم، وهو دعاء مقدر ومقضي لأن كل شيء بيد الله. ولعن المؤمن لأخيه المؤمن أو لأي شخص: ابن أو غير ابن محرَّم في الإسلام تحريما باتا، ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الرابع إن لعن المؤمن كقتله، وهو تعظيم لإثم اللعن إذ يجعله كإثم القتل، حتى لا يلفظ به المسلمون. ويقول في حديث

له: لا تلاعنوا بلعنة الله ولا غضبه ولا بالنار، ويقول ليس المؤمن بالطعان واللعان. وكما حرم الرسول لعن الإنسان حرم لعن الحيوان، وقال نضلة بن عبيد الأسلمي: بينما امرأة على ناقة عليها بعض متاع القوم إذ بصرت بالرسول صلى الله عليه وسلم وتضايق الطريق بالقوم فأرادت أن تحث الناقة على سرعة السير فزجرتها، وقالت: اللهم العنها، وسمعها الرسول، فقال لا تصاحبنا ناقة عليها لعنة، وأخذوا ما على الناقة من متاع، وتركوها تمشى لا يعرض لها أحد. وإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد حرم لعن الحيوان رحمة به فإن الإنسان أولى منه بهذا التحريم، ولذلك جعله الرسول صلى الله عليه وسلم كبيرة يأثم من يلفظه في مواجهة أي إنسان صغيرا أو كبيرًا قريبا أو بعيدًا إثما كبيرا.

٧٠- سوء الظن- التجسس

القرآن الكريم

قال الله تعالى:

١-يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا

الحجرات ١٢

٢-وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ

الإسراء ٣٦

٣-مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨)

ق ١٨

٤-إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤)

الفجر ١٤

الأحاديث:

١- عن أبى هريرة رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إياكم والظنَّ فإن الظن أكذب الحديث (رواه البخاري في باب ما ينهى عنه من التحاسد ورواه مسلم بروايات متعددة في كتاب البر والصلة، كما رواه مالك وابن حنبل في مسنده وأبو داود والترمذي).

٢- عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال: رأيت الرسول صلى الله عليه وسلم يطوف بالكعبة ويقول: والذي نفس محمد بيده لحرمة المؤمن أعظم عند الله تعالى حرمةً منكِ: ماله ودمه وأن يُظَنَّ به إلا خيرا (رواه ابن ماجه في سننه).

٣- عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه أُتى برجل، فقيل له: هذا فلان تقطر لحيته خمرا، فقال: إنا قد نهينا عن التجسُّس، ولكن إن ظهر لنا شيء نأخذ به (رواه أبو داود).

٤- عن عقبة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مَن ستر عورة مؤمن فكأنما استحيا موءودة من

قبرها (رواه ابن حنبل في مسنده وأبو داود والنسائي).

والآية الأولى أدب قرآني عظيم للمسلمين أن لا يظن بعضهم ببعض ظنونا سيئة لأن في ذلك ما يفضي في علاقة الرجل بزوجته إلى غيرة الرجل غيرة شديدة عليها، وقد تؤديه الشبهة الكاذبة إلى الطلاق. وسوء الظن بين الرجال قد يؤدى إلى القطيعة بين الصديقين، وقد يؤدى إلى ما هو أسوأ أي إلى العداء الشديد. وقد يكون الظن دينيا، وهو اعتقادات المشركين والمجوس وعبدة الكواكب وعبدة الأوثان، فكل هؤلاء يتبعون ظنونا مخطئة كما قال تعالى عنهم في سورة يونس: (وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا) ويقول: ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾كما في سورة الأنعام، ومعنى يخرصون يخمنون تخمينات وظنونا باطلة. والله- في الآية- ينهى عن الظن السوء مطلقا في الدين وغير الدين مما يكون بين الأفراد من الأهل والناس، وهو ما نهى عنه الرسول في الحديث الأول، وقال إنه أكذب الحديث، لأنه اتهام لا يقوم على أساس، والآية والحديث يدعوان إلى صون عرض المسلم ولا يريدان بالظن الظن الشرعي وهو تغليب أحد الرأيين على الآخر، وإنما المراد الاتهام الذي لا يسنده دليل. ويدعو الحديث الثاني إلى أن لا يظن المسلم بأخيه المسلم ظن سوء أبدا وأن يظن به خيرا حتى يكون أفراد المسلمين دائما إخوانا لا يظن أحد منهم بأخيه شرا، إنما يظن به خيرا دائما، ويقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه لا تظنن بكلمة خرجت من فم أخيك المؤمن إلا خيرا مادمت تجد لها في الخير محملا.

ويشدد الله في النهى عن سوء الطن فيقول إنه إثم أي ذنب يستحق العقوبة عليه. وهو زجر شديد عنه. وينهى الله في الآية الثانية عن أن يقول مؤمن ما ليس له علم به كأن يقول رأيت ولم ير أو سمعت ولم يسمع أو علمت ولم يعلم. ومن ذلك أن يتهم زوجته أو جارته أو جاره بريبة. وهى من أشد الظنون والتهم السيئة المحرمة. ويقول الله تكملة الآية الثانية ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾أي إن السمع والبصر والفؤاد تقع على كل منهم مسئولية شديدة فيما يرمى به شخص آخاه بما ليس له علم يقيني به، فإن الله سائله عن ذلك كله.

والله- تقدس اسمه- في الآية الأولى عقب نهيه عن سوء ظن المسلم بأخيه يَنْهَى عن التجسس، وهو البحث بوسائل خفية عن عيوب شخص ومعرفة عوراته، وهو هتك لحرمات الشخص ومحاولة للإصلاح على ما يخفيه. وهو ما يحرمه الإسلام على المسلم أن يتجسس على أخيه، والإسلام يدعو المسلم إلى الستر دائما على المسلم والنهى البات عن التجسس كما يشهد بذلك ابن مسعود في الحديث الثالث. ويرفع الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الرابع من شأن من يستر عورة لأخيه المؤمن حتى ليجعله

كأنما استحيا موءودة من قبرها. وبحق جعل الإسلام التجسس إحدى الكبائر المحرمة، فلا يجوز أن يتجسس مسلم على غيره فضلا عن أنه لا يجوز له التجسس على زوجته ولا على أبنائه وأقربائه. وعليه أن يذكر أصدقاءه ومعارفه بكل خير ويعرف لهم حرماتهم ويصونهم عن أن يذكروا بأي سوء. والتجسس المحرم هو الذي لا يؤدى نفعا للمسلمين ولا يدفع عنهم أذى وشرًّا بخلاف التجسس على الأعداء وتجسس الشرطة على النصوص والجناة.

والآية الثالثة تحذير شديد للمسلم، فإن كل ما ينطق به من قول سواء كان خيرا أو شرا وسواء كان ظنَّ خير أو ظن سوء، وسواء كان بحثا طيبا عن شخص أو بحثا عما لا يجب أن يُعرف عنه تجسسا، كل ذلك يكتبه ملك مُعَد لمراقبته ويؤاخذ به قائله إن كان بغيا وعدوانا على مسلم. ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم برواية ابن حنبل في مسنده وكتب السنن: عن بلال بن الحارث المزني: إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله عز وجل له بها رضوانه إلى يوم القيامة، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله تعالى عليه بها سخطه إلى يوم القيامة.

والآية الرابعة تحذير شديد هي الأخرى للمسلمين أن الله- جل شأنه- يرصد كل ما يأتيه المسلمون من قول أو فعل، وأنه يجازى كلا بقوله وفعله، وستعرض الخلائق عليه يوم القيامة، فيحكم فيهم بعدله، ويجزى كل إنسان بما قدمت يداه. وبدون ريب تحريم الله- عزَّ شأنه- على المسلم هاتين الصفتين الذميمتين من سوء الظن والتجسس إرشاد أعلى منه لتسود الأخوة بين المسلمين، فلا يظن أخ بأخيه سوءًا ولا يتجنى عليه بأوهام تجول في خاطره، وأيضا لا يتجسس ليتعرف على ما يعيب أخاه مما يخفيه ولا يجهر به فإن في ذلك هتكا لحرمته وأخوته وتعرضا لعقاب أليم من ربه.

٧١- الغيبة- النَّميمة

القرآن الكريم

قال الله تعالى

١-وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ (١٢)

الحجرات ١٢

٢-وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ

القصص ٥٥

٣-وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (١١) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ (١٣)

القلم ١٠- ١٣

٤-يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا

الحجرات ٦

الأحاديث:

١- عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أتدرون ما الغِيبة ؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال: ذِكرُك أخاك بما يكره، قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول ؟ قال إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بَهَتَّه[1] (رواه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب).

٢- قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مَن حَمىَ مؤمنا من منافق يغتابه بعث الله تعالى إليه ملكًا يحمى لحمه يوم القيامة من نار جهنم (رواه ابن حنبل في مسنده وأبو داود في سننه).

٣- عن حذيفة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا يدخل الجنَّة نَمَّام (رواه مسلم في كتاب الإيمان

---

(١) بهته : كذبتَ عليه.

والترمذي والنسائي وابن حنبل).

٤- عن أسماء بنت يزيد بن السكن: ألا أخبركم بشراركم؟ المشاءون بالنميمة، المفسدون بين الأحبة، الباغون للبُراء العنت (رواه ابن حنبل في مسنده).

والله- عز شأنه- ينهى في الآية الأولى عن الغيبة، وهى ذكر شخص غائب بما لا يحب أن يُذكر به، وصوَّرها الله في صورة شديدة القبح للكف عنها إذ جعلها مثل أكل لحم الأخ المسلم الميت الذي لا يستطيع الدفاع عن نفسه، ويقول الله إنكم تكرهون ذلك طبعا فينبغي أن تكرهوا مثيلتها من الغيبة شرعا. وهى تعد جرحا كبيرا في أخوة الإسلام، إذ إن صاحبها يصيب أخوَّة من يغتابه بطعنة شديدة، ولو أن الذي أغتيب عرف ما يقوله عنه المغتاب لنشبت بينه وبين من يغتابه عداوة خطيرة، فضلا عن أن المغتاب يشغل نفسه بما لا يعنيه، وأولى أن يشغلها بما يفيده وينفعه. وهى تعد من الكبائر المحرمة، وقد نهى عنها الرسول صلى الله عليه وسلم كما في الحديث الأول، ويقول للصحابة: من حَمَى مؤمنا من مغتاب بعث الله إليه ملكا يوم القيامة يحميه من نار جهنم كما في الحديث الثاني. وله أحاديث كثيرة في النهى عنها نهيا شديدا كأنه يريد أن يقضى على هذه الخصلة الذميمة قضاء مبرما، فلا تعود إلى الظهور أبدا بين أصحابه، فمن ذلك ما رواه البراء بن عازب قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم زاجرا، حتى أسمع النساء في بيوتها فقال: يا مَعشر من آمن بلسانه لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم فإن من يتبع عورة أخيه يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه في جوف بيته. والرسول يجعل المغتاب منافقا فقد آمن بلسانه ولم يُفض الإيمان إلى قلبه، ويقول إن من يتبع عورة أخيه المسلم ليفضحه ويشيع عنه السوء يتصدَّى له الله- جلَّ جلاله- مدافعا عنه، ويتتبع عورات هذا المغتاب حتى يفضحه فضيحة كبيرة. وما من أحد يسمع أحاديث الرسول في الغيبة حتى يقشعَّر بدنه فلا يقترفها أبدا. ويروى أن امرأتين صامتا على عهده وجعلتا تغتابان الناس، وأُخبر بذلك، فقال: صامتا عما أُحلَّ لها أي من الطعام وأفطرتا على ما حرَّم الله عليها أي من الغيبة. وحري بالشخص أن ينزِّه لسانه عن ذكر عيوب الناس وأن لا يذكروهم إلا بما فيهم من محامد دون أن يهتك لأحد منهم سترا، واضعا دائما نصب عينيه الشعار النبوي: أحبَّ لأخيك ما تحب لنفسك. وإذا اغتاب شخص أمامك شخصا ينبغي أن تعرض عنه كما نصت الآية الثانية، وبذلك تنزِّه سمعك عن استماع الغيبة، ولا بأس أن تنصح للمغتاب، وتقول له اتق الله في صاحبك.

والآية الثالثة تصف النمام الذي يسعى بالنميمة أي الوشاية بين الناس لإفساد علاقاتهم، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى أصناف الكفار والمنافقين في القرآن ولم يذمهم كما ذم النمام فقال عنه إنه كثير الحلف في

الباطل ﴿مُهِينٍ﴾ كاذب، عياب للناس، يسعى بين الناس بالنميمة للإفساد ﴿ مَنَّاعٍ ﴾ لكل خير ﴿ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴾يتناول المحرمات ﴿عُتُلٍّ ﴾ أي غليظ فظ ﴿ زَنِيمٍ ﴾ دعيٌ في قومه لصيق شرير. والنميمة من الكبائر المحرمة التي تقدح في الرجال ذوى المروءة إذ يحاول صاحبها أن يسلب الشريف شرفه والعزيز مكانته فضلا عن إفساده علاقات المودة بين الأزواج والأصدقاء. ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الثالث: لا يدخل الجنة نمام، ويقول في الحديث الرابع النَّمامون شراركم، إذ يفسدون ما بين الأحبة من الأزواج والأصدقاء، ويبغون وقوع العنت والشر بمن يغتابونهم، ومرَّ الرسول على قبر، فقال إن صاحبه يعذَّب لأنه كان يمشى بين الناس بالنميمة. وكم من صديقين تعاديا ومحبين تباغضا وزوجين افترقا، بسبب سعاية نمام. وقد يقطع الشجر بالفئوس فينبت، ويقطع اللحم بالسيوف فيندمل ويبرأ، ولسان النمام لا يندمل جرحه. والنمام لئيم قد يدَّعى على الشخص سقطات ليست فيه، وحتى إن كانت فيه كان ينبغي أن يسترها لا أن ينشرها، وفى الحديث: مَن ستر عبدا في الدنيا ستره الله يوم القيامة. ومَثَلُ النمام مثل الذباب لا يقع إلا على الجروح ونحوها متجنبا صحيح الجسد وسليمة كذلك النمام يقع على الزلات والسقطات في الشخص التي تشبه العورات وبدلاً من أن يغض نظرة عنها يذيعها، وفى المثال كن ملِحا تصلح ولا تكن ذبابا تفسد. وقد يختلق النمام لمن ينم عليه كلاما لم يقله وعزائم لم يفكر فيها، وبذلك يكون نماما وكذابا فيجمع رذيلتين، ويعاقبه الله عقابا أليما.

ويقول الله تعالى في الآية الرابعة ﴿ إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾أي فتثبتوا وتحروا غاية التحري. والآية لطف من الله بعباده إذ تفيد حكم الله بأن النمام فاسق لا يقبل قوله، وفى قبوله غير قليل من الإثم إذ كأنما قابله يجيزه له ويساعده على نشره، وينبغي أن ينصحه بأن لا يلوكه حفظا لمن يغتابه من أن يمسه بسور، وخشية من الله. والنميمة- بدون ريب- تقطع المودات وتهتك العورات وتضيع الحرمات، وقد تدفع إلى الإحساد والعداوات. وغالبا يكون النمامون كاذبين، وحتى لو صدقوا أحيانا فإن الله يبغضهم حتى مع صدقهم لما يبغون من الإفساد وزرع الشر بين الناس.

٧٢- السخرية- الشماتة

القرآن الكريم

قال الله تعالى

١-يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١)

الحجرات ١١

٢-إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آَمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ

النور ١٩

٣-فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ

الأعراف ١٥٠

٤-وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ (١)

الهمزة ١

الأحاديث:

١- عن أبى هريرة رضى الله عنه قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلم: بِحَسْب امرئ من الشرِّ أن يحقر أخاه المسلم (رواه مسلم في أثناء حديث بكتاب البر والصلة).

٢- عن واثلة بن الأسقع قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تظهر الشماتة لأخيك فيرحمه الله ويبتليك (رواه الترمذي).

٣- عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده (رواه البخاري وأبو داود والنسائي).

٤- عن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تباغضوا وكونوا عباد الله إخوانا (رواه البخاري في باب ما ينهى عنه من التحاسد ومالك في موطئه وابن حنبل في مسنده وأبو داود والترمذي).

والآية الأولى في السخرية وخصال ذميمة، والسخرية هي الاستهزاء. ووجَّه الله التحريم إلى الأقوام لأن العشائر فيما يبدو كان يسخر بعضها من بعض احتقارا واستصغارا. وهى محرمة على الأفراد تحريمها على الأقوام، فلا يسخر أحد من أحد ولا قوم من قوم ﴿ عَسَى أَنْ يَكُونُوا ﴾عند الله ﴿ خَيْرًا مِنْهُمْ ﴾وأفضل، وبالمثل لا يسخر نساء من نساء عسى أن يكن عند الله خيرا منهن. ولا تسخر امرأة من امرأة مهما كانت فقيرة أو محتاجة، فقد تكون المحتقَرة أعظم قدرا عند الله وأحب إليه من الساخرة بها، كذلك الشأن في الرجال فلا يسخر أحد من أحد ولا يحتقره بأي صورة من الصور مهما كان فقيرا ومحتاجا إلى عونه. ﴿ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾من اللمز وهو القدح والعيب.

وجعل الله- جلَّ شأنه- لمز الشخص كأنه لمز لنفسه، إذ يلمز أخاه المسلم وكأنها يلمز نفسه ويعيبها ويطعن فيها. والله- بذلك- ينفِّر المسلم من عيب أخيه والطعن فيه. ﴿ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ﴾ السيئة، والألقاب منها الحسن مثل الرشيد ومنها السيئ مثل الأحول. ويقول الله إن كلا من السخرية والتنابز بالألقاب واللمز فسوقٌ و (بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ) وهو بذلك يجعل هذه الصفات المذمومة فسوقا لصاحبها بعد أن أكرمه الله بالإيمان، وهى لذلك من المعاصي التي ينبغي التوبة منها ﴿وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾لأنفسهم ظلما بَيِّنا. ويجعل الرسول صلى الله عليه وسلم السخرية واللمز والتنابز بالألقاب في الحديث الأول شرا ما بعده شر قائلا: بحسب امرئٍ من الشر أن يحقر أخاه المسلم بإحدى تلك الصفات الذميمة المعيبة.

ويتوعد الله في الآية الثانية من يحبون شيوع الفاحشة وما يشبهها في المؤمنين واشتهار التحدث بها، والفاحشة في الآية يراد بها الأمر المنكر، كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا ﴾. وكل هذه الصفات الذميمة السابقة أمور أنكرها الله على من يأتيها وأوجب التوبة منها لما في ذكرها وإشاعتها بين المؤمنين من إلحاق الأذى الشديد لمن توجَّه إليه سخريةٌ أو لمز أو نبز، ويتوعد الله في الآية من يزاولون هذا العمل السيئ- إن لم يتوبوا- بعذاب أليم.

وينهى الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الثاني عن إظهار المسلم الشماتة بأخيه، مهما كان يعاديه، حين تنزل به مصيبة، إذ الواجب أن يتألم بما يألم منه أخوه المسلم، كما يفرح له بما يفرح به. وعند البَلْوَى ينبغي أن يواسيه حتى لو كانا متباغضين، ويقول الرسول لمن يشمت بأخيه حين حلول المصيبة بعد إياك والشماتة به، فقد يرحمه الله وينحِّى عنه المصيبة التي جعلتك تشمت فيه، ويبتليك بمصيبة مماثلة. والآية الثالثة تشير إلى قصة رجوع موسى من مكالمة ربه وحمله لألواح التوراة إذ وجد بنى إسرائيل قد ضلوا وعبدوا عجلا كما كانوا يعبدون عجل أبيس في مصر مع المصريين، فقال لهم بئس ما فعلتموه من ترك عبادة الله إلى عبادة العجل، وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه هرون ممسكا بشعره ليؤلمه تأنيبا له على عدم أخذ الإسرائيليين بالشدة في غيبته، واعتذر له هرون ليكفَّ عن عقابه قائلا: ﴿ فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ ﴾وتجعلهم يفرحون بما أنزلت بي واعفُ عنى ولا تجعلني في عداد الظالمين.

والآية الرابعة نزلت في جماعة من مشركي قريش اعتادوا همز الرسول والمؤمنين ولمزهم بألفاظ بذيئة، والله جَلَّ شأنه- يتوعدهم بكلمة ﴿وَيْلٌ﴾ وهى دعاء عليهم بالعذاب يقول: ﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ﴾الصيغتان يوزن فُعَلة الدال على كثرة وقوع هذا الفعل من صاحبه مثل ضُحكة الدال على كثرة الضحك. والهمزة العيَّاب الذي يكثر من عيب الناس بألفاظ بذيئة وإلصاق العيوب بهم كذبا، ومثله المُّزة، وهما صفتان ذميمتان سيئتان منتهى السوء، ولذلك دعا الله على المتصف بهما بعذاب وعقاب شديد.

وكل هذه الصفات الذميمة من اللمز والشماتة والتنابز بالألقاب والسخرية تنافى الإسلام الصادق الذي يقوم على المودة والأخوة الصادقة بين المسلمين بحيث لا يصدر عن المسلم أي قول أو لفظ يؤذى أخاه. ويقول الرسول- صلى الله عليه وسلم- كما في الحديث الثالث: المسلم الكامل مَن سلم المسلمون من لسانه ويده، بحيث يعاملهم معاملة كريمة، وبحيث لا يصدر عنه لهم إلا ما يرضيهم ويسرهم. ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الرابع: لا تقاطعوا أي لا تتهاجروا، وفى حديث: لا يحلُّ لمسلم أن يهجر أخاه فيعرض عنه، ويترك أداء السلام له، فوق ثلاثة أيام، ويقول لا تدابروا أي لا تتعادوا، ولا تتباغضوا، ويوصيهم في الحديث بأن يكونوا إخوانا بحيث يحبُّ كل أخ لأخيه ما يحبه لنفسه.

٧٣- الحمد لله- الشكر لله

القرآن الكريم

قال الله تعالى

١-الْحَمْدُ للهِ

الفاتحة ١

٢-وَقُلِ الْحَمْدُ للهِ

الإسراء ١١١

٣-فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (١٥٢)

البقرة ١٥٢

٤-لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ

إبراهيم ٧

الأحاديث:

١- عن جابر بن عبد الله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أفضل الذكر لا إله إلا الله وأفضل الدعاء الحمد لله (رواه الترمذي).

٢- عن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كل أمر ذي بالٍ لا يُبدَأ فيه بلفظ: الحمد لله فهو أقطع(١) (رواه أبو داود).

٣- قال رسول الله لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له، إن أصابته ضراء صبر فكان خير له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيرا له (رواه البخاري).

٤- عن عائشة رضى الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقوم (يصلى) من الليل حتى تتفطَّر (تتشقق) قدماه، فقلت له: لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك من ذنبك ما تقدم وما تأخر؟ قال،

((١ أقطع : أبتر.

أفلا أحب أن أكون عبدا شكورا (رواه البخاري في باب التهجد ومسم في باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة).

والحمد ثناء عام يكون ابتداء، ويكون عن يد أو معروف قدمه شخص لصاحبه فحمده. أما الشكر فلا يكون ابتداء بدون معروف أو جميل قُدِّم لصاحبه بل لابد أن يكون ردًّا أو جزاء لجميل أو معروف. ويخطئ من يظن أن كلا منهما يقع مطلقا موقع الآخر، والحمد- بذلك- أعم من الشكر. والإنسان يحمد الله مرارا على النعم التي أسبغها عليه والتي لا يمكن لأحد أن يحصيها أو يستقصيها في نفسه وسمعه وبصره وعقله وجسده وفى حياته وكل ما يصيبه من رزق في زراعة أو صناعة أو تجارة وفى كل ما ينعم به في أسرته من بنين وبنات وفى أمته من أمن ورفاهية وحضارة ومدنية.

والله- تبارك اسمه- يحمد نفسه في الآية الأولى التي يبتدئ المسلمون بسورتها قرآنه الكريم ويفتتحون بها صلاتهم في كل ركعة يقومونها. وقرن الله هذا الحمد لنفسه في تنزيله للقرآن قائلا في أول سورة الكهف ﴿ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ ﴾وهى أعظم نعمة أنعم الله بها على أهل الأرض إذ أنزل الذكر الحكيم على رسوله محمد لهداية البشر، وأيضا فإنه قرن هذا الحمد لنفسه في ابتداء خلقه في فاتحة سورة الأنعام: ﴿ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾. وحمد الله في كل هذه الآيات مضمن أمرَ عباده أن يحمدوه ويثنوا عليه، وكأن الله يقول لعباده معها جميعا قولوا ﴿ الْحَمْدُ للهِ ﴾. وبالمثل تدعو الآية الثانية إلى ترادها، ولذلك يرددها المسلمون في بقاع الأرض كما في الحديث الأول دعاء لربهم وثناء على نعمه، ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الثاني إن كل أمر مهم لم يفتتح بكلمة الحمد لله يُعَد أقطع أي أبتر كأنما قُطعت يده ونقصت بركته.

والمسلمون لا يحمدون الله فقط لنعمه الكثيرة التي يضيفها عليهم، بل يحمدونه أيضا حمدا صادرا عن إيمان عميق في أفئدتهم بجلاله وكماله المطلق الذي يتجلى به الكون تلقاء أبصارهم دون أي خلل أو اضطراب وعوج، بل مع النظام والتناسق الدقيقين ومع الجمال الذي بثَّه الله في السماء وكواكبها المضيئة وفى الأرض وزروعها وحيوانها. وإنه لكون يتجلَّى بإبداع الخالق وجلاله وعظمته. وفى الحديث عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما- كما في سنن ابن ماجة- أن رسول الله صلى الله عليه وسلم- حدثهم أن عبدا من عباد الله قال: ياربِّ لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك فعضلت (١). بالملكين، فلم يدريا كيف يكتبانها، فصعد إلى الله، فقالا: يا ربَّنا إن عبدا من عبادك قال مقالة لا ندرى كيف نكتبها، قال

((١ عضلت : استغلقت.

الله- وهو أعلم بما قال عبده- ماذا قال عبدي؟ قالا: قال: لك الحمد يا ربِّ كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، فقال الله لهما: اكتباها كما قال عبدي حتى يلقاني فأجزيه بها. والحديث النبوي يصور ثواب الحمد لله تصويرا رائعا.

والشكر توأم الحمد، والله في الآية الثالثة يقول: ﴿ فَاذْكُرُونِي ﴾أي اذكروا نعمى ومحامدي ﴿ أَذْكُرْكُمْ ﴾بما أسبغ عليكم منها ﴿ وَاشْكُرُوا لِي ﴾هذه النعم الكثيرة. ويعد الله وعدا كريما في الآية الرابعة أن شكره على ما يتفضل به من نعمه على خلقه.. يجعله يزيدهم منها نعما لا تزال تتجدد مع كل شكر. وللشكر ثلاث صور: شكر بالقلب، وشكر باللسان وشكر بالجوارح. وشكر الله ينبغي أن يكون بالقلب. لأنه صاحب النعم جميعا كما قال: ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾سواء كانت في السمع والبصر والجسد أو كانت في الفكر والعقل أو كانت في المطعم والملبس والمسكن أو كانت في الزوجة والأولاد أو في أي وجه من وجوه حياة الشخص، مما يجعله يشكر ربه من أعمق الأعماق في قلبه، كما يجعله دائما يلهج بشكره، ويردده بلسانه كلما أصابته سراء كما في الحديث الثالثة، بل في جميع أوقاته. ولا يشكر المسلم ربه بقلبه ولسانه فحسب، بل يشكره أيضا بأعماله في العبادة وبالقروض المالية في الزكاة والصدقة وكل أعمال البر والخير. والحديث الرابع يصور كيف كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعد العمل في الطاعات شكرا، فقد ذكرت فيه أم المؤمنين السيدة عائشة رضى الله عنها أن الرسول كان ما يزال يكثر من صلاته ليلا حتى تشققت قدماه، فقالت له متعطفة متلطفة، لماذا تشق على نفسك بالصلاة مع ما أصاب قدميك من تشقق، وقد غفر الله لك من ذنبك ما تقدم وما تأخر أي كما جاء في سورة الفتح، فقال لها قولته العظيمة: أفلا أكون عبدا شكورا لربى على ما أنعم به علىّ. والصلاة بذلك شكر ومثلها كل أنواع العبادات العملية من صيام وزكاة وحج. وكل عمل خيرٍّ أو صالح تعمله شكر: فمواساة الفقراء شكر لله، وقضاء حوائج الأهل والإخوان شكر. وينبغي أن نشير إلى أن من أشد ما يحزُّ في نفوس المستحقين للشكر على عمل أدَّوه لأناس رجوهم أن يؤدّوه، فأدوه لهم، أن لا يتقدموا إليهم بشكر ولا ما يشبه الشكر، وهو جحود مرير. وفى سنن أبى داود عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من لم يشكر الناس لم يشكر الله، فهو لا يشكر من أحسن إليه، حتى ربه يجحده ويجحد ما تفضل به من النعم، إذ الجحود متأصلي في نفسه وهو جحود مقيت للرب ولكل من يؤدى له صنيعة أو جميلا.

وأنا أحمد الله الذي هداني إلى تأليف هذا الكتاب، وما كنت لأهتدي إلى تأليفه لولا أن هداني الله الذي يسبغ على شخصي الضعيف آلاءه ونعمه دائما بمنِّه وفضله وإحسانه.